القرآن.. ومثل الذين كذبوا بآيات الله

حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة يشبهه الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

نلاحظ أن الكلب هو الحيوان الوحيد الذى يلهث دائماً، أما باقى الحيوانات فإنها تلهث حين تكون عطشى فقط، أى إننا إذا استعرضنا حيوانات الأرض نلاحظ أنها لا تلهث وتخرج ألسنتها إلا إذا كانت عطشى، أما الكلب فإنه يلهث فى جميع الأحوال سواء كان عطشان أو يملأ بطنه الماء، جوعان أو شبعان، فذلك الإنسان الكافر شبه بالكلب الذى يضع فمه فى كل شىء قذر نجس وفى كل شىء له رائحة نتنة، تماما كذلك الكافر الذى يضع اللقمة فى فمه فلا يهمه من أين تأتى ويضع أنفه فى أشياء ويشترك فيها، ولا يهمه إن كانت قذرة أو نظيفة تؤدى إلى إيذاء الناس أو فساد المجتمع، فهو يقدم كل ما هو دنىء ورخيص ويقبله من أجل المال.

هذا هو الوجه الأول للتشبيه فالكافر يقوم بأعمال كثيرة لا يقترب منها مؤمن، ويقوم بأعمال لا تتسم بالخلق ولا ترتبط بأى قيم، ويتهم الناس بالباطل ويدعى عليهم كذبا، ولا يبالى إذا كانت أعماله هذه ستؤدى إلى خراب البيوت وتشريد أطفال صغار، والقضاء على أناس شرفاء ونشر الشقاء و الذل.

ولا يحسب المؤمن أنه لو ترك الكافر وحاله سيسكت، ذلك أن المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾.

ذلك أنك لو حملت عليه وهاجمته فإنه يحاول أن يرد هذا الهجوم مستخدما أقذر الوسائل اللاأخلاقية يضع أنفه وفمه فى النجاسة ولا يبالى، وإذا تركته هاجمك هو، فالكافر لا يطيق المؤمن لأنه فى داخل نفسه هناك شىء يؤرقه هناك شىء يحس أنه يغلى فى داخله، إنه يرى فى هذا المؤمن الخير الذى لم يستطع أن يحمل نفسه عليه، لذلك فإن الكافر لا يمكن أن يترك المؤمن من دون أن يحاول أن يهاجمه أو يشوهه، ويكفى لكى تعرف ذلك أن تأتى لبعض الناس الذين يفعلون المعاصى وَضع بينهم إنساناً لا يفعلها، إذا كان بعض الناس يشربون الخمر وجلس بينهم واحد لا يشربها انقلبوا جميعا عليه يحاولون أن يلحقوا به أذى بالكلام، وأحيانا بالفعل؛ لأنهم لا يطيقون وجوده كذلك إذا وجد الشريف وسط اللصوص وجلس بينهم فى عمل واحد فإنهم يحملون

عليه جميعا حتى ولو لم يهاجمهم هو، ولعل الإيمان الذى خلق فينا بالفطرة يكمن داخل نفوسنا وهذا الإيمان من النفس التى رأت الله سبحانه وتعالى فى عالم الذر حينما أشهد الناس على أنفسهم وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

هذه النفس وصاحبها يرتكب المعصية تحس بهول ما ستلقاه، فتوجد فى داخله صراعا يجعله يريد أن يفتك بكل مؤمن، ويصور الله سبحانه وتعالى هذه الصور فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ [الحج: ٧٢].

إذن.. الكافر لا يترك المؤمن بل هو يحاول بقدر الإمكان إما أن يجعله يتبع طريقه أى طريق الكفر، أو يهاجمه بشتى الوسائل؛ لأنه يحس إحساسا داخليا بأن المؤمن أفضل منه، ويحس إحساسا نفسيا بالذنب وهو يرى المؤمن المطمئن الثابت الذى لا تهزه أحداث الدنيا.

وفى أى مجتمع تجد دائماً الكفار أو غير المؤمنين يحاولون أن يبحثوا عن عورات المؤمنين ليشوهوا صورتهم أمام الناس، بينما لو كان هناك إنسان كافر أو ملحد فإنه لا أحد يتتبعه بل إن المجتمع يحاول أن يبرر له معاصيه وجرائمه وينسبها تارة إلى حالة نفسية وتارة إلى ظروف قاسية محاولا بذلك أن يجد له مبررا للمعصية.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وهنا يريد الله سبحانه وتعالى أن يختم المثل الذى ضربه لنا عن المعصية والكفر وعن العاصين والكافرين فيقول مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم اقصص عليهم هذه القصص التى تشرح لنا كيف تتم الغواية وكيف يضل الإنسان ويخرج من الإيمان إلى الكفر لعلهم يتفكرون فيها ويعرفون أسبابها، فإذا أحس أحدهم أنه بدأ ينصرف عن آيات الله ويبتعد عنها يعرف أن هذا هو الطريق أو أولى خطوات الطريق ليفتنه الشيطان فى الدنيا ما دام قد دخل إليها غير متسلح بالإيمان، ولا مستعين بقدرة الله سبحانه وتعالى.

حينئذ نكون قد وصلنا إلى الهدف أو الغاية من المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى لنا، ذلك المثل الذى يرينا أننا لابد أن نتمسك بمنهج الله فى الكون ونلتفت إلى آياته وتعاليمه وننظر إلى ما يحدث أمامنا بفكر إيمانى، فإذا أتى الناس هذا ثم انسلخوا عنه وتركوه فإننا لابد أن نعرف أن الشيطان سيتبعهم، وأن مشيئة الهدى والعون من الله سبحانه وتعالى ستتركهم لأنفسهم، وحينئذ يحسون أن الأرض أو هذه الحياة القصيرة هى الخلود، ويفقدون إيمانهم بالآخرة، وما داموا قد فقدوا الإيمان بالآخرة فإنهم سيصبحون فى هذه الحالة لا قيم عندهم يتبعون هوى النفس بدون أى شىء آخر ويصبح مثلهم كمثل الكلب الذى يلهث إذا هاجمته ويلهث إذا تركته، يستخدمون كل وسيلة مهما تكن غير

شريفة وغير نظيفة، ويصبح فى داخلهم غل لموكب الإيمان، فإذا هاجموا استخدموا جميع الوسائل فى الرد دون ما رادع من خلق أو قيم أو دين؛ وإذا تركوا وشأنهم هاجموا مواكب الإيمان وتعرضوا لها بالزور والبهتان ذلك مثل المكذبين بآيات اللّه.

ولعل هذه الصورة تكتمل بقصة الخير والشر على الأرض، تلك القصة التى ضربها اللّه سبحانه وتعالى لابنى آدم أول ذرية من البشر والتى ارتكبت فيها أول جريمة قتل فى تاريخ البشرية.

obeikandl.com

معجزة القرآن.. ومثل الخير والشر

مثل الخير والشر فى هذه الدنيا لا يجب أن يؤخذ بمقاييسنا نحن، بل لابد أن يؤخذ على إطلاقه لأن كل إنسان منا خلق صالحا لفعل الخير ولارتكاب الشر، أما ما يقع من الله سبحانه وتعالى فهو خير، لكن بعض الناس يأخذ الشر بمقاييسه هو؛ فمثلا إذا لم يذاكر فى الامتحان اعتبر هذا شرا بينما هو خير عميم، لماذا؟ لأنه هب أن كل إنسان لم يذاكر ونجح فى الامتحان ماذا سيحدث؟ سيترك الجميع المذاكرة ولا يتم تحصيل للعلم، ولا تقدم فى الحياة الدنيا؛ ولذلك فإن من جمال الأسباب فى الحياة أن يرسب من لا يذاكر، ومن جمال الأسباب فى الحياة ألا يجد قوت يومه من لا يعمل.

ومن جمال الأسباب فى الحياة أن تتخلف الأمم التى ينتشر فيها الفساد والسرقات، ومن جمال الأسباب فى الحياة أن تنتج الأرض وتعطى أحسن محصولاتها لمن يعتنى بها فى البذرة وفى الرى وفى كل مستلزمات الزراعة، وذلك هو جمال أسباب الحياة الذى يضمن استمرار التقدم للبشر، واستمرار الحياة فى الكون، وأن يعمل الناس فى عمارة الأرض كما يريد الله سبحانة وتعالى وليس هذا شرا، بل هو خير لأنه إذا تساوى من يعمل ويأخذ بالأسباب ومن لا يعمل ضاعت الحكمة من الكون، وضاع من البشرية التقدم؛ لذلك فإن من يهمل أرضه مثلاً من الخير ألا تعطيه محصولاً، ومن يهمل عمله من الخير ألا يعطيه دخلاً.

وهناك فى الكون من الأسباب ما ينفعل لك، وما ينفعل بك فما ينفعل لك يتم دونما أى جهد شخصى، ودونما أى تفرقة بعدل الله فالشمس تشرق وتعطى أشعتها للجميع: المؤمن والكافر دون ما جهد من أى منهما، والهواء يتنفسه العاصى والمطيع دونما أن يحبس عن أحدهما ويعطى للآخر.

أما الأسباب التى تنفعل بك، فهذه بقدر ما تعطيها بقدر ما تعطيك بلا ظلم، فإذا اعتنيت بالأرض أعطتك المحصول الجيد، وإذا اعتنيت بالصناعة لاقت رواجا، وإذا اعتنيت بالتجارة كان ربحك أكبر بقدر ما تعطى بقدر ما تأخذ، والله يزيد على هذا ويبارك لمن يشاء؛ ذلك لأن الأسباب فى الكون لا تعمل بعيدا عن مشيئة الله، بل هى خاضعة لهذه المشيئة التى لا قيود عليها فلا قيود على طلاقة قدرة الله تبارك وتعالى.

على أن قصة ابنى آدم والقربان الذى قرباه إلى الله سبحانه وتعالى، والنهاية التى انتهت بها القصة بأن قتل الأخ أخاه فيها مثل إيمانى على الخير والشر كجانبين من جوانب الحياة يستطيع الإنسان أن يستخدم أيا منهما.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة].

هذه الآيات الكريمة تضرب لنا مثل ابنى آدم أو تحكى لنا قصتهما ماذا حدث؟ عندما بدأت البشرية فى مزاولة مهامها على الأرض، ونزل آدم وزوجه من الجنة وسكنا هذه الأرض، كان الله سبحانه وتعالى يرزقهما بذكر وأنثى فى كل حمل حتى تبدأ عمارة الأرض، وكان الذكر والأنثى اللذان جاءا فى حمل واحد لا يتزوجان، وإنما تتزوج الأنثى من الحمل الأول بالذكر من الحمل الثانى، والذكر من الحمل الأول بالأنثى من الحمل الثانى، وهكذا علم الله آدم، والحكمة فى هذا لم تكشف إلا فى الفترة الأخيرة، كل شىء فى الدنيا تأتى بشبيه له قريب منه ينشأ الناتج ضعيفا، وكلما بَعُدَ كان الناتج قويا، هذه حكمة الله التى أودعها فى خلقه؛ ولذلك فإن زواج الأقارب إذا توالى ينتج سلالة ضعيفة؛ ذلك ينطبق على الحيوان وعلى النبات، وهذا ما نعرفه الآن باسم عملية التهجين.

على أننا نأتى بالبقرة من أمريكا مثلاً ونقوم بعملية تهجين من البقر المصرى تنتج سلالة قوية، فإذا طمعنا بعد ذلك ولم نعد التجربة باعتبار أن البقر الذى لدينا قوى، فإنه فى هذه الحالة تنشأ سلالة ضعيفة تتوالى فى النزول، فإذا أتينا مثلا ببذرة البطيخ الشيليان من أمريكا وزرعناها فى تربة مصر، فإننا نجد المحصول جيدا وعظيما، فإذا أخذنا من ناتج المحصول وزرعنا بدون أن تتم عملية التهجين هذه؛ يبدأ المحصول يضعف بالتدريج.

الله سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى هذه الحقيقة فى قصة ابنى آدم، بأنه حتى فى أول الخلق تمت المباعدة بقدر الاستطاعة بين من هم من حمل واحد، فكان الابن لا يتزوج أخته التى هى معه فى الحمل نفسه، حتى ينشأ الجيل الذى بعدهما قويا، ولكننا لم نلتفت لهذا إلا أخيرا، كان ذلك أيضا من حكمة تحريم زواج الأخوات، زواج الأخ وأخته، وابنة الأخ وابنة الأخت، وما شرعه الله سبحانه وتعالى فى الإسلام.

الجريمة الأولى: وكان على ابنى آدم هابيل وقابيل أن يتزوج من الأخت التى جاءت فى الحمل مع الأخ الآخر فماذا حدث؟ قابيل وجد أن الأخت التى جاءت مع هابيل فى حمل واحد دميمة أو غير مقبولة الشكل، فرفض أن يمتثل لما علم الله آدم من الحكمة وثار وقال لابد أن أتزوج أختى التى جاءت معى فى حمل واحد ضاربا بما علم الله آدم وضاربا بتعاليم الله التى كانت تقتضى بالفصل بين الأخوين والأختين فى حمل واحد.

وذهب الأخوان قابيل وهابيل إلى آدم ليحكم بينهما فقال آدم: إن هذه هى الحكمة التى علمها الله له؛ ولكن قابيل الذى كان يتهم أباه بالتحيز إلى هابيل رفض هذا الكلام، وغرته قوته على أن يحاول فرض الأمر متجاهلا بذلك تعاليم السماء.

ولما اشتد الخلاف ورأى آدم أنه لا فائدة أراد أن يرد الأمر إلى الآمر، أو إلى الله سبحانه وتعالى واقترح عليهما أن يقدما قربانا إلى الله وما يحكم به الله، أو من يتقبل قربانه يكون هذا هو صاحب الحق، وفى هذا يكون احتكام إلى الله فى أمر من أمور التشريع، ووافق الأخوان على ذلك، ذهب هابيل وأحضر أحسن ما عنده كبشا سمينا من أحسن ما يملك وجعله قربانا لله، وذهب قابيل وأحضر حفنة من ثمرات لم يتخيرها وجعلها قربانا، وهذا يدل على أن التقوى فى قلب هابيل كانت أكبر، وأنه عندما قدم قربانا إلى الله اختار أحسن ما عنده؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا؛ أما قابيل فقد غرته بشريته وقوته، ومادام ظاهرا يستطيع أن يفرض الأمر الواقع، فلماذا العناية؟ ولماذا التقرب؟ ولذلك جمع بعض ثمرات بإهمال وجعلها قربانا؟

ووقف الاثنان ينتظران حكم الله فى القربان الذى قدماه إليه، وجاء حكم السماء فنزلت النار، وأكلت قربان هابيل علامة على التقبل من الله سبحانه وتعالى، وأن الله يؤكد شرعه من أن ابن الحمل الأول يتزوج من ابنة الحمل الثانى، وابن الحمل الثانى يتزوج من ابنة الحمل الأول، ولكن هذا الحكم لم يعجب قابيل ولم يرض بحكم الله وثار وقال لأخيه: إن لم تخضع لرأيى فسأقتلك، وهنا رد هابيل بأنه لا ذنب له فيما حدث؛ ذلك أن الذى تقبل القربان والذى حكم ليس هابيل ولكنه الله سبحانه وتعالى، ومن هنا قال هابيل إنما يتقبل الله من المتقين، فلماذا تريد أن تقتلنى وأنا لا ذنب لى فى هذا؟ والله سبحانه وتعالى هو الذى تقبل وقد تقبل منى لأنى تقى وهو يحب المتقين ويتقبل منهم وكيف تمت التقوى؟ وكيف كانت؟ ولماذا كان هابيل تقيا لأنه رضى بحكم الله أولاً فى أن يتزوج أخته من الحمل الثانى، ورضى بحكم الله ثانيا فى القربان الذى قدمه؛ ولذلك فهو يتبع تعاليم الله سبحانه وتعالى ويعمل وفق مرادات الله، إنه لا يحاول أن يشرع لنفسه بغير ما قضى الله ولا هو يحاول أن يعدل فى أحكام الله وفق هواه البشرى، بل هو راض ومتبع لمنهج الله وهذه هى سمات المتقين.

رضى هابيل أن يتزوج أخته من الحمل الآخر، فكافأه الله بأن جعلها جميلة تسر الناظرين ورضى بالتحكيم لله بالقربان، وقدم أحسن ما عنده فتقبل الله منه.

ولكن هل يرضى قابيل بهذه النتيجة؟ لا، لابد أن يمثل ثورة البشرية التى تحكم هوى النفس على المنهج الإلهى، ولابد أن تغره قوته، ويعتقد أنه يستطيع أن يفرض ما يشاء ما دام قويا، وكم من الأقوياء فى الدنيا يحس أنه بقوته التى مكنه الله منها يستطيع أن يفرض ما يشاء، ويعبث فى الأرض ضاربا بمنهج الله؛ ليحقق ما تريده نفسه رغم ما فى ذلك من سلب حقوق الآخرين، والاعتداء عليهم وظلمهم.

وهنا نأتى للحكمة الخالدة: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] هنا يقول بعض الناس إن هذه سلبية من هابيل،

إذ كيف يترك أخاه ليقتله بدون أن يدافع عن نفسه، ولكنها فى الحقيقة لا تمثل سلبية، ولكنها تحكى إيمانا ويقينا، فهابيل يريد أن يثير نوازع الخير فى نفس أخيه، لعل هذا الخير يتغلب على الشر الذى ملأه، وهو بذلك اتخذ أول خطوة يتخذها إنسان مؤمن إذا أراد إنسان آخر به سوءا فى أن يحاول إثارة الخير فى نفسه، فتجد الإنسان المؤمن الذى أراد إنسان آخر به سوءا فإنه يذكره بالله وقدرته عليه، ويذكره بالخير وماله من جزاء، وكثيرا ما نسمع من يقول لإنسان يريد شرا: اتق الله أو يذكره بالله سبحانه وتعالى علّ هذه التذكرة تجعله يتردد أو يفيق مما هو فيه.

يضاف إلى ذلك أنك إذا قلت لأى إنسان يريد بك شرا: مهما أردت بى الشر فلن أمد إليك يدى بالأذى، فى هذه الحالة وفى أحيان كثيرة تسكن نفسه وتبتعد عن الشر الذى أراده، مضافا إلى ذلك صلة الرحم التى بين الأخوين، والتى غالبا إذا قابل أحدهما إساءة الآخر بالإحسان تجعل الثانى يفيق ويبتعد عن الشر الذى يريده، وهكذا لجأ هابيل كإنسان مؤمن إلى محاولة إثارة نوازع الخير فى قابيل نفسه علها تردعه عما يريد أن يفعله وعن جريمة القتل التى يريد أن يرتكبها، ثم يرفع هابيل الأمر إلى الله سبحانه وتعالى ويذكر أخاه به فيقول: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٩].

أى إنه يذكر أخاه بأن جريمة القتل التى سيرتكبها جزاؤها كبير عند الله، ذلك أنه من يقتل إنسانا فإنه يحمل فوق جريمة القتل كل آثام المقتول وذنوبه إن كانت له آثام ويبقى فى النار مخلدا فيها ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يسمح لأى إنسان بالعبث فى خلقه ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٣].

ويقول جل جلاله: ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ ﴾ [المائدة: ٣٢].

وفى هذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا بالذنب العظيم للقاتل، وأنه قد حرم قتل النفس البشرية إلا بما شرع الله، كأن يكون القتل قصاصا على جريمة قتل ارتكب بغير حق أو أن يكون لمنع الفساد فى الأرض، وفيما عدا ما شرع الله سبحانه وتعالى فى قتل النفس، فإن القتل ذنب عظيم ولذلك حرم الله على عباده قتل النفس إلا بالحق؛ أى الحق الذى شرعه الله كقصاص على جريمة ارتكبتها هذه النفس.

ولكن بالرغم من هذا التحذير ومحاولة إثارة كوامن الخير فى قابيل نفسه وتذكيره بالله وبالجزاء الذى ينتظره؛ فإن هذا لم يجعله يرتدع؛ ذلك أن قوته وعبادته لنفسه وغروره بأنه هو الأقوى، وهو الذى يستطيع أن يقتل كانت كل ما يفكر فيه ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة: ٣٠].

وهنا لفتة من اللّه سبحانه وتعالى فى أن النفس جبلت على الخير بفطرتها، وأن الإنسان هو الذى يطوعها ويقهرها لفعل الشر، ولذلك فإن مسألة القتل قد احتاجت من قابيل جهدا ليطوع نفسه ويدفعها إلى الشر، تماما كما يحاول كثير من الناس أن يذهب ليتناول كمية كبيرة من الخمر مثلاً قبل أن يرتكب جريمة حتى تغيب هذه الخمر عوامل الخير فى نفسه، فيقدم على الجريمة فى لحظة غياب الخير، أو أن يظل المجرم فى صراع نفسى وعقلى قبل الإقدام على جريمته، ويحاول أن يثير نوازع الشر فى نفسه، وأن يجعل الغل والحقد فى قلبه حتى يستطيع أن يرتكب جريمته من دون أن يتردد، وكثير من الذين يتخذون سبيل الجريمة نجد أنه فى المرة الأولى يحتاج إلى تطويع نفسى كبير حتى يستطيع أن يصبح قادرا على ارتكاب جريمته، فإذا فعل ذلك تركه اللّه سبحانه وتعالى للشيطان يزين له الجريمة ويمنيه بأنه سيفلت من العقاب الدنيوى وأنه سيحصل على مميزات كذا وكذا حتى يرتكب جريمته، ونادرا ما يرتكب أى إنسان جريمته إلا وهو واثق من أنه سيفلت من العقاب الدنيوى على الأقل، هكذا يزين له الشيطان ثم بعد ذلك تقع الجريمة وتنكشف ويخسر الإنسان الدنيا والآخرة، على أن الإنسان الذى يفعل ذلك هو إنسان قصير النظر يمتاز بالغباء؛ ذلك أن الذى يفكر فى العقاب الدنيوى فقط، إنما يفكر فى شىء زائل وقتى ويفرح بشىء لا ينجيه إلا فترة مؤقته طالت أو قصرت؛ لأنه مهما اختفى عن أعينُ الناس مهما استطاع بفكره وبمعونة الشيطان أن يهرب من البشر؛ فإنه لا يوجد مكان لا يراه اللّه فيه، ولا يوجد وقت يغفل اللّه فيه عنه، ولذلك فإنه إذا غفلت البشرية كلها فإن اللّه سبحانه وتعالى لا يغفل، وما قيمة البشرية وهو مغادرها، وكيف الهروب من اللّه وهو ملاقيه، والعقاب فى الدنيا على أساس قدرات البشر، والعقاب فى الآخرة بقدرات اللّه سبحانه وتعالى.

وفرق هائل بين القدرتين ولذلك لا يفرح إنسان بأنه أفلت من العقاب البشرى ويحسب أن هذا فوز بل هو خسران مبين؛ لأنه إن أفلت فإلى أين يذهب؟ وأين يختفى؟ وإلى أى مكان يهرب من لقاء اللّه؟

إذن.. فقد كان تذكير هابيل لقابيل بعاقبة جريمة قتله بأنه سيكون مخلدا فى النار هى فطنة المؤمن التى لا تخيب، وهى ذكاء المؤمن الذى يعرف حقيقة الدنيا والآخرة، وكان عدم اكتراث قابيل بهذا التذكير هو غباء الكافر الذى يعتقد أن العقاب الدنيوى هو نهاية المطاف، وأنه إن أفلت منه فقد أفلت نهائيا من العقاب وإذا كانت النفس البشرية قد جبلت على الخير، فإن الإنسان يطوعها للشر ولذلك فالأصل فى الإنسان والأصل فى الكون هو الخير، ولكن الإنسان بقصر نظره واغتراره بقوته وقدرته هو الذى يدفع ويطوع هذه النفس للشر، وهى صالحة لذلك حسب تطويع صاحبها لها.

على أننا لابد من وقفة؛ ذلك أن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا وينبهنا إلى أن

ذلك الضعيف الذى لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ضد الذى يحاول إيذاءه أو الاعتداء عليه، فإن الله سبحانه وتعالى يقتص له، ذلك أن الله قائم على قومه، قوام على عباده بالعدل والقسط، وقد شاء عدل الله سبحانه وتعالى أن يعطى لعباده كلهم حقوقا متساوية، وأن يكون هو القائم أو القوام على هذه الحقوق بحيث إذا اعتدى قوى على ضعيف مستخدما بذلك قوته التى وهبها الله له فإن الله يقتص منه، فلا يحسب إنسان مهما يكن قادرا أو قويا بأنه سيفلت من العقاب ولا يحسب إنسان مهما يكن ضعيفا وغير قادر أن الله لن يقتص له، فعدل الله ماض فينا جميعا وكلنا عبيده لنا عنده الحقوق نفسها وعلينا الواجبات نفسها، وذلك حتى تطمئن الإنسان نفسه الضعيفة إلى أن ظلم القوى له لن يجعله يفلت من العقاب، وأنه إذا كان هناك جبار فى الأرض فجبار السماوات أقوى وأقدر.

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٣٠].

أى: إنه حين استذله الشيطان، ونسى الله وارتكب جريمة القتل خسر الدنيا والآخرة ولم يكسب شيئاً، ففى الدنيا باء بغضب من الله، وذلك الغضب يجعل رحمة الله سبحانه وتعالى تبتعد عنه فينطلق من إثم إلى إثم لا يكسب شيئاً وخسر الآخرة، لأنه أصبح من أصحاب النار، فلم يكسب إلا الخلود فى عذاب النار دونما رجاء فى الرحمة.

حينئذ تأتى الحكمة الخالدة التى ترى هذا الإنسان الذى اغتر بنفسه أنه لا يساوى شيئاً، وأن قوته وعلمه وكل ما يملكه هو لا شىء عند الله سبحانه وتعالى، وأن الله قد يعطى من هو أضعف منه من العلم والقوة مالم يعطه لهذا الإنسان الذى غرته قدراته وقوته على معصية الله وارتكاب الإثم فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة: ٣١].

حينما تمت جريمة القتل بقيت الجثة أمام قابيل لا يعرف ماذا يفعل بها، لقد كانت هذه أول جريمة قتل فى تاريخ البشرية، وأول إنسان ينتقل من الحياة إلى الموت على ظهر الأرض ماذا يفعل قابيل فى الجثة؟ هل يتركها هكذا فى العراء؟ أم ما الذى يحدث؟ فتلفت قابيل حوله وهو حائر عله يستطيع أن يهتدى إلى حل، أو يجد طريقة يبعد بها جسم الجريمة الذى يذكره بالإثم الكبير الذى ارتكبه يبعدها عن نظره يواريها بعيدا، فقد كان منظر الجثة والدماء يصرخ فى وجه قابيل صراخا داخل النفس وإن لم يكن خارجها، وكلما التقى نظره بجثة أخية أراد أن يبعده عنه؛ لأن الجريمة تؤرق المجرم كلما تذكرها؛ ولذلك فهو يحاول أن يكبتها فى نفسه، وينحيها بعيدا. وأنت إذا أردت أن تهيج النفس البشرية فذكر الإنسان بإثم ارتكبه أو بفعل لا يقره الله قام به، حينئذ تحس النفس البشرية بضيق لأن هذه النفس رأت الله وهى تعلم ما ينتظرها من عقاب.

حينئذ دار قابيل بنظره حول المكان الذى ارتكب فيه جريمته محاولا أن يجد وسيلة

للتخلص من جثة أخيه أو إبعادها عن نظره فماذا حدث؟ أرسل الله سبحانه وتعالى غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه، كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لقابيل أنت الذى غرتك قوتك وغرتك مقدرتك، وارتكبت جريمة القتل وعصيت، سأريك ما هى قوتك وسأجعل الغراب الضعيف الذى لا يضاهيك فى الحجم، ولا يقترب منك فى القوة، سأجعل هذا الغراب الضعيف معلماً لك، يعلمك لتعرف قدر نفسك، ولتعرف أنك لا تساوى شيئا، أنت ارتكبت جريمة القتل هذه اعتزازا بقوتك وغرورا بمقدرتك، ولكنك عجزت أمام سوءة أخيك بعد أن أصبح جثة فى عورة لابد أن تدارى، ووقفت وأنت المغرور عاجزا تتطلع هنا وهناك لا تدرى ماذا تفعل، وأنا أرسل إليك هذا الغراب ليكون أستاذا لك، وقادرا فوق قدرتك، فيعلمك كيف توارى سوءة أخيك، حتى تعرف أن القوة لله وليست لأحد، وأن المغرور بما أعطاه الله عاجز تماماً أمام قدرات الله، وليكن هذا لك آية لتعلم أنه لا علم إلا ما علمه الله لك، ولا قدرة إلا بما أعطاها الله لك.

وحينئذ تنبه قابيل إلى الحكمة من إرسال الغراب أو ينبهه الله سبحانه وتعالى إلى إرسال الغراب ليريه كيف يوارى سوءة أخيه فيقول: ﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ ﴾ [المائدة: ٣١].

وحينئذ ينبه الله قابيل إلى الحكمة من إرسال الغراب ويتنبه لها، ويعترف بعجزه أمام هذا المخلوق الضعيف ويتنبه للجريمة التى ارتكبها، ولغرور النفس الذى سيطر عليه فيقول: يا ويلتى، ويعرف أن الويل والعذاب هو الذى ينتظره، ثم يعترف بعجزه أمام العلم الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى للغراب فيقول أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب؟ أى إننى وأنا قوى، اعتقدت أننى بقوتى أستطيع أن أفرض ما أريد، وأن أحقق ما أشاء، اكتشفت فجأة أننى عاجز وعاجز أمام من؟ أمام من هو أقل منى قوة وقدرة أمام هذا الغراب، حينئذٍ عرف قدراته الحقيقية وهى أنه عاجز مهما خيل إليه أنه قوى، وأنه مهما بلغ من العلم أنه لا شىء مقابل ما يعطيه الله من علم لعدد من مخلوقاته، وهذا العجز الإنسانى أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره لنا حتى لا نحس بأننا نملك القوة و القدرة لنعصى الله، مدعين أنها قدرات ذاتية فالإنسان فى حقيقتة عاجز عن أشياء كثيرة، وهو يستطيع أن يفعل أو يدعى أنه يستطيع أن يفعل مجازا.

فالإنسان عاجز أو غير قادر حتى على نفسه، حتى على جسده، من منا يستطيع أن يأمر قلبه بأن يتوقف عن النبض أو يأمره إذا توقف أن يعود للنبض مرة أخرى؟ من منا يستطيع أن يأمر رئتيه بعدم التنفس؟ كأن يقول قررت ألا أتنفس لمدة ساعة حتى تستريح رئتاى، ثم أعود إلى التنفس. من منا يستطيع أن يقول لمعدته اهضمى هذا الطعام أو لا تقربى هذا الطعام الذى نزل إليك؟ من منا يستطيع أن يقول لكبده اعملى أو توقفى عن العمل؟ بل إننا سنترك هذه الحركات غير الاختيارية لنناقش الحركات الاختيارية، أنت

تمشى بقدميك أو هكذا تعتقد على الأقل، ذلك أنك حين تريد أن تمشى فإنك تقوم وتمشى، وحين لا تريد أن تمشى تجلس، ولكنك إذا نظرت إلى أحد المصابين بأمراض مختلفة فى العمود الفقرى والأعصاب والمخ وغيرها، تجد أن له قدمين ولكن لا يستطيع أن يمشى، لو أن المشى قدرة ذاتية من الإنسان، لو أنه يعتمد على قدرة الله ولكنه نابع من الشخص نفسه، أكان من الممكن أن يكون لإنسان قدمان ولا يستطيع أن يمشى؟ أكان من الممكن والعينان وسيلة الإبصار أن يكون لإنسان عينان مفتوحتان ولكنه لا يرى؟ أكان من الممكن أن يكون لإنسان يدان كاملتا النمو، ولكنه لا يستطيع أن يحركهما ليفعل بهما شيئاً؟ أكان من الممكن أن يكون لإنسان لسان ولكنه لا يستطيع النطق؟ أو له أذنان ولكنه لا يستطيع السمع؟ إننا نرى هذه الأمثلة أمامنا فى كل يوم، وهى قليلة جدا فى الحياة بالنسبة لملايين البشر الأصحاء الأقوياء ولكنها مع قلتها لها حكمة بأننا نتحرك وفقا لإرادتنا ولكن بمشيئة الله، ونتكلم عندما نريد الكلام ولكن بمشيئة الله، ونبصر بأعيننا ولكن بمشيئة الله، فأين هى القوة و القدرة الذاتية للإنسان فتجعله يغتر ويرتكب المعاصى ويقول أنا وأنا وهو فى الحقيقة عاجز، وإين هو علم الإنسان من علم الله الذى سيكشفه لنا فى الآخرة الذى يجعل الشىء يأتينا بمجرد أن يخطر على عقولنا، أين هذا العلم من ذلك الذى أشار إليه الله سبحانه وتعالى فى قصة سليمان: ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

أين علم الإنسان من هذا كله؟ والذى عنده علم الكتاب قد قام بنقل عرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس قبل أن يرتد طرف عين سليمان، أى قبل أن يرتفع جفن العين ويعود إلى الانخفاض مرة أخرى، أى فى ما لا زمن، هذا قدر من عنده علم من الكتاب، فماذا يكون قدر من عنده علم الكتاب كله فلابد أن يعترف الإنسان أنه عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى فلا يغتر ولا ينسب الفعل لذاته أو لشخصيته ولينسب الفضل كله لله، وإذا لم يفعل فإن الله سبحانه وتعالى يأتى بأدنى مخلوقاته ويسلطه على هذا الجبار ليريه أنه عاجز تماما كما يأتى الله سبحانه وتعالى بجرثومة صغيرة لا تظهر ولا حتى تحت الميكروسكوبات العادية ولا الميكروسكوبات الإلكترونية، يأتى بهذا المخلوق البالغ الدقة فى الصغر ويسلطه على أكبر جبابرة الأرض الذين يعتقدون أنهم يقولون للشىء كن فيكون والذين يقولون من أشد منا قوة، يسلط الله سبحانه وتعالى هذه الجرثومة عليهم فتدخل إلى أجسادهم فتجعلهم عاجزين ويجتمع أطباء الأرض كلهم بما لهم من علم ويأتون بأحدث اكتشافات الدنيا، وأحسن عقاقير بلا فائدة ويبحث العلماء عن السبب فلا يعرفونه، وأحيانا إمعانا من الله سبحانه وتعالى فى إظهار عجز خلقه يعرفون الداء، ولكنهم لا يجدون له الدواء ولعل هذا يذكرنا بما حدث بالنسبة لدول كبرى رقد رؤساؤهم

فى المستشفى طويلا بلا حراك بينما كانوا يدعون أنهم أقوى الناس فى الأرض، ووقف حولهم علمهم وهو عاجز أن يفعل شيئا، ووقفت الدنيا بكل قدراتها وما وصلت إليه من علم واكتشافات عاجزة تماما أمام قدرة جرثومة صغيرة من خلق الله ثم بعد ذلك يتحدثون عن قدرة البشر وقوة البشر.

هذا هو ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه عندما أرسل الغراب ليرى قابيل كيف يوارى سوءة أخيه، ويجعله يتعلم ممن هو أقل منه قدرة وأضعف منه؛ ذلك الغراب الذى يستطيع قابيل أن يقتله بحجر أو بيده إذا أمسك به ولا يستطيع الغراب أن يحمى نفسه، وذلك الغراب بعثه الله معلما لقابيل ومعلماً للبشرية كلها بعدم الغرور؛ لأن من هو أدنى منك قد يعطيه الله من العلم أكثر مما يعطيك، وأنك وأنت القادر ظاهرا على أشياء كثيرة ربما تعجز أمام أدق مخلوقات الله سبحانه وتعالى وهى جرثومة صغيرة لا تعرف لها علاجا ولا تعرف لها دواء.

ثم يكمل الله سبحانه وتعالى فيقول على لسان قابيل؛ فقال: ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ أى إن قابيل حين تنبه إلى ضعفه وعجزه، وعرف أن غرور قوته كان من الشيطان الذى يحاول أن يغرى الإنسان على المعصية، ثم بعد ذلك يهرب ساعة الجزاء مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦].

فندم على الغرور الذى أدى به إلى هذه المعصية التى سيجازى عليها جزاء مهولاً لأن قابيل هو الذى سن القتل فى الدنيا مصداقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[(١)]. أى: إن كل جريمة قتل وقعت أو ستقع فى الأرض منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة سيقع إثمها على من عمل بها وعلى قابيل الذى استن هذه السنة السيئة.

إلى هنا ونأتى إلى الحكمة التى أرادها سبحانه وتعالى من قصة ابنى آدم التى جاءت فى القرآن الكريم، فيرينا أن الرضا بما قسمه الله هو الخير، ولو أن قابيل رضى بما قسمه الله وتزوج أخته التى جاءت فى الحمل مع أخيه هابيل لكان ذلك خيرا له ولوقاه شرورا كبيرة ولوقاه الخلود فى النار، ولكن عدم الرضا بما قسمه الله والذى يضع الشر فى النفس البشرية ويقودها إلى طريق التهلكة والمؤمن الذى يعلم أن الخير فيما اختاره الله يفعل ما فى وسعه ويأخذ بالأسباب، فإذا جاءت النتيجة وفق هواه فهو خير، وإذا كانت النتيجة

(١) جزء من حديث رواه ابن ماجه [٢٠٣] عن المنذر بن جرير عن أبيه رضى الله تعالى عنهما بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «.. ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا». وصححه الألبانى، وأحمد فى المسند [٤/٣٦]، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

عكس هواه فهو سيؤدى إلى الشر والله وقاه بأن أعطاه الخير بدلا من أن ييسر له الشر، والمؤمن عليه أن يرضى بحكم الله، والله تقبل قربان هابيل وكان على قابيل أن يرضى بهذا الحكم ويمتثل له، ولكن بدلا من ذلك وضع نفسه فى مرتبة العليم ورفض تقبل حكم الله، وأن الله سبحانه وتعالى يتقبل من المتقين، فإذا أردنا أن نتقرب إلى الله فلابد أن تكون التقوى فى قلوبنا أولاً وأن نتخير الطيب فنتقرب به إلى الله ولا نختار الخبيث والأشياء التالفة والعفنة، لأن الله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، وألا يقودنا غرور النفس وتغرنا قدراتنا على الناس، ولنعلم أن قدرة الله وقوته وحوله مع الضعيف، ولنحذر أن نبطش وأن نظلم فإن الله قادر أن يسلط علينا أبسط مخلوقاته لتسلبنا القدرة والقوة التى نظن أنها تنبع من أنفسنا، وألا نسن سنة سيئة فى الحياة يراد بها الإفساد فى الأرض لأننا سنتحمل وزرها ووزر من عمل بها.

obeikandl.com

الكلمة الطيبة.. والأمثال فى القرآن

اللّه سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان ونفخ فيه من روحه، انطلق الإنسان فى مهمته فى الحياة وهى عمارة الأرض وتطبيق منهج اللّه، وكانت أحداث الحياة كلها بالنسبة للإنسان هى الكلمة والفعل والنية، وفى خارج إطار هذه الثلاثة لن تجد شيئاً فى الدنيا، فالإنسان إما أن يتكلم أو يبيت النية على أن يفعل شيئاً أو يفعل هذا الشىء فعلا، ولقد أعطى اللّه سبحانه وتعالى للكلمة السيادة فى الدنيا، فهى التى يتلقى عن طريقها الإنسان منهج الخالق سبحانه وتعالى، ومنهج اللّه هو كلمات اللّه إلى خلقه، والكلمة هى أساس سيادة الإنسان فى الأرض؛ ذلك أنه لولا الكلمة ما استطاع إنسان أن يدون فكرا، وما استطاع الإنسان نفسه أن يستفيد من علم غيره، والإنسان يرث الحضارات عن طريق الكلمة، ويرث العلم عن طريق الكلمة، ويرث التقدم عن طريق الكلمة، وكل جيل يقرأ ما وصل إليه الجيل الذى قبله، ثم يضيف إليه وينقله إلى الجيل الذى بعده؛ إذن فالذى صنع الحضارة الإنسانية وجعلها تتوارث جيلا بعد جيل وكل جيل يضيف إلى ما انتهى إليه الجيل الذى قبله، كل هذا تم بالكلمة، ولو أننا أعطينا من اللّه سبحانه وتعالى الكلمة ما أمكن لعلم أن يدون ولا لتقدم أن يعلم ولأصبحت الإنسانية كلها لا اتصال بينها، الجيل الماضى عاجز عن أن ينقل إلى الجيل الحاضر علمه والجيل الحاضر عاجز عن أن يدون ويبقى للجيل القادم حضارته، وهكذا لو أن الإنسانية جردت من الكلمات لخسرت حضارتها وثقافتها كلها.

والكلمة تعبير عن شىء ما، لكن هذا التعبير لا يأتى من مطلق ولا من فراغ؛ بل لابد أن يوجد المعنى فى الذهن أولاً، ثم بعد ذلك تأتى الكلمة التى تعبر عنه، أى إن الكلمات لا تصدر من فراغ، ولكنها تصدر عن أشياء موجودة أو متصورة ذهنيا لتعبرعنها بحيث إذا قيلت الكلمة قفز المعنى إلى الذهن، لذلك لا نجد مثلا أن هناك كلمات لأشياء غير موجودة، وقبل أن يخترع التليفزيون لم يكن اسم التليفزيون موجودا، ذلك أنه لم يكن يوجد فى العقل البشرى حتى يمكن أن يعبر عنه بكلمة، وكذلك التليفون، وكذلك أشعة الليزر، وكذلك الصواريخ، والأطباق الطائرة إلى آخر ما يسجله العلم، ولكن الشىء وجد أولاً؛ ثم بعد ذلك وضع له الاسم الذى يجعل العقل عندما يذكر أمامه هذا الاسم تتضح أمامه متعلقات الاسم فيفهم عن ماذا تتحدث؛ ولذلك فإن اللغات فى جميع أنحاء العالم يضاف إلى قواميسها كل عام كلمات جديدة، والكتب تصدر فى كل أنحاء العالم لتعلم الناس هذه الكلمات الجديدة فى كل فرع من فروع الحياة.

إذن.. ما هو غيب عن الإنسان لا يستطيع أن يعبر عنه بكلمة أو لا يستطيع أن يفهمه؛ ولذلك فإنك عندما تتحدث عن شيء لم يره إنسان تجد أن من تتحدث إليه لا يفهم ما تقول، حينئذ تحاول أن تقرب إليه المعنى بشيء موجود يفهمه؛ كأن تقول له: إن هذا الشيء مثل الكرة مثلاً، أو كالخط المستقيم، أو شكله بيضاوى، أو حجمه كالفيل تماما، أو فى سرعة الطائرة؛ وإذا أردت أن تعرف ذلك بالدقة فاقرأ حديث الذين رأوا أشياء غير مألوفة فى الأرض ويحاولون أن يصفوها للناس، نجد أنهم يشبهونها بأشياء مألوفة لدينا حتى نستطيع أن نفهمها، الذين رأوا الأطباق الطائرة مثلا وحاولوا أن يصفوا ما رأوا إلى الناس، لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا بالتشبيه، وقالوا إن الطبق مستطيل يبدو من بعيد كشكل السيجارة، أو مستدير أو مسدس، وأنه يخرج منه مخلوقات تمشى على قدمين مثل الإنسان، ولكن أجسادها نحيلة كالعظام بلا لحم، وعقولها كبيرة مثل حجم العقل الإنسانى أربع أو خمس مرات، وتخرج من أيديها وأرجلها مثلا أشعة تضيء مثل الكهرباء وفى مقدمة الطبق الطائر ماسورة على هيئة مدفع تخرج منه حمم مثل الصواعق إلى آخر ما قيل حول الأوصاف التى رواها أولئك الذين قالوا إنهم رأوا الأطباق الطائرة، وأرادوا أن يشرحوا للناس ما رأوه، ولقد كان هذا الشرح مستحيلاً من دون أن يشبهوه بأشياء فعلا، حتى يستطيع العقل أن يستوعبها.

وهنا لنا وقفة، ذلك هو لفظ الجلالة «اللّه» سبحانه وتعالى ما ذكر اسم اللّه إلا وفهمه الجميع، الجاهل والمتعلم، الصغير والكبير، والذى قرأ علوم الدنيا والذى لم يقرأ حرفا واحدا فى حياته، اللّه غيب عنا لم يره أحد، اللّه ليس كمثله شيء فلا يمكن تشبيهه - تبارك وتعالى وتنزه - بأى شيء فى عالمنا المادى.

إذن.. من أين جاء هذا الفهم؟ جاء لأننا عرفنا اللّه سبحانه وتعالى بالفطرة وأشهدنا على نفسه قبل أن نأتى إلى هذه الحياة وقال جل جلاله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف].

ومصداقا لهذه الآيات الكريمة، فإننا إذا ذكر لفظ الجلالة فهمناه جميعا دونما حاجة إلى شرح، ولذلك فإن الإيمان ضرورة لغوية؛ لأن اللفظ فى اللغة لا يطلق إلا على موجود ولا يفهم إلا إذا كان ما يطلق عليه موجودا، ومعنى فهمنا للفظ الجلالة أن اللّه سبحانه وتعالى موجود وكلنا يعلم وجوده.

وحتى الذين يحاولون ستر وجود اللّه سبحانه وتعالى من الكافرين، نقول لهم إنه لا يمكن أن يتم هذا الستر إلا إذا كان اللّه سبحانه وتعالى موجودا، فلا جدل بين الناس يقوم حول العدم أو حول شيء غير موجود؛ لأنه ما دام الشيء غير موجود فالعقل البشرى لا

يعرفه، وعلى هذا لا تكون هناك مشكلة تقتضى الإنكار، ولكن إذا وجد الشيء وجد الجدل؛ لأن الجدل لابد أن يقوم على شيء يفهمه العقل، ووجود الشيء وفهم العقل له تم أولاً ثم بعد ذلك بدأ حديث عنه، والذين يجادلون فى الله ويحاولون ستر وجوده إنما هم فى الحقيقة يثبتون هذا الوجود؛ لأنهم يتحدثون عنه ولا يمكن للعقل البشرى أن يتحدث إلا عن شيء موجود فعلا ويعرفه.

والكلمة التى هى تعبير عن شيء موجود فعلا لها تأثير كبير فى حياة البشر فكم من كلمة أشقت إنسانا، وكم من كلمة أسعدت إنسانا، وكم من كلمة أقامت أسرة سعيدة، وكم من كلمة هدمت أسرة وشردتها، وكم من كلمة قامت على أساسها عداوات وحروب، وكم من كلمة بدلت الحروب بالسلام، وكم من كلمة أدت إلى جرائم، وكم من كلمة منعت الجرائم، وكم من كلمات أقامت ثورات وأسقطت عروشا، وكم من كلمة قضت على ثورات وأبقت عروشا.

إذن.. فالكلمة فى حياة البشر لها أهمية كبرى، وهى التى يبدأ بها العمل، الكلمة تضع الإطار للعمل أو تضع النظرية كما يقولون أو الخطة، ونحن لا نستطيع أن نقوم بعمل متقن إلا إذا حددناه بكلمات أولا حتى نعرف ماذا نفعل، فلا يعقل أن تأتى بالناس وتطلقهم هكذا كل واحد منهم يفعل ما بدا له، حينئذ تكون العملية فوضى مطلقة؛ ويكون الناتج منها شيئاً بلا نفع، ولكن إذا أتيت بالذين يشتركون فى عمل محدد وعرفت كل واحد منهم ماذا سيفعل، وشرحت له بالكلمات ما هو مطلوب منه، سيكون عند كل واحد منهم صورة ذهنية واضحة لما سيقوم به، سيتم العمل على أكمل وجه؛ لأن الصورة الذهنية لابد أن تكون واضحة قبل أن يقوم بالفعل، تماماً كما أنه من الضرورى حين تفتح مدرسة مثلاً أن تضع منهجا لهذه المدرسة قبل أن يأتى تلميذ واحد ليتلقى الدرس فيها.

والله سبحانه وتعالى ذكر الكلمة فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة وقال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]. ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكلمة الله نافذة: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

ولذلك فإن كلمات الله سبحانه وتعالى هى تمام فعله لماذا؟ لأن الله عزيز فليس هناك أى قوة تستطيع أن تقف وتمنع تنفيذ كلمة من كلمات الله؛ أو تجدّ ظروف تمنع أن تتم هذه الكلمة وتصبح فعلا ووجودا ولنشرح هذه النقطة قليلاً.

الإنسان قد يقول ولكن الفعل لا يتم، وهناك فرق بين القول والفعل فى حياة البشر.. لماذا؟ لأننا نعيش عالم الأغيار، فالفعل عندنا محتاج إلى عناصر كثيرة فلكى يتم: محتاج أولاً إلى وقت وإلى زمن، ونحن لا نملك الزمن ولكن الزمن هو الذى يملكنا، نحن لا نستطيع أن نعرف يقينا أننا سنعيش الساعة القادمة مثلاً؛ لذلك فإننا إذا تحدثنا عن فعل شيء قد لا نعيش وقد لا نوجد حتى نتمه، وإذا امتد بنا العمر إلى ساعة

حدوث الفعل فنحن نخضع لظروف كثيرة، منها أنه لابد لنا من إمكانيات حتى يتم الفعل، وهذه الإمكانيات لا نملكها ذاتيا بل هى معتمدة على آخرين لا نستطيع أن نتحكم فى ظروفهم، فمثلا إذا أردت أن أبنى بيتا فقد أعد كل شىء وأملك الزمن ولكن الذين سيعملون فى البناء لا يحضرون فلا يتم، ونحن قدرات مختلفة بعضها فوق بعض، ومن هنا فإن قدرة قاهرة قد تأتى لتمنع وقوع الفعل كأن تأتى مثلا الحكومة وتستولى على الأرض التى قررت إقامة البناء عليها فتمنع إتمام الفعل، ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده زمن ولا توجد قوة أو قدرة فوق قوة الله وقدرته، فهو قاهر فوق عباده، وهو العزيز الذى لا يوجد إلا من هم دونه ولذلك إذا قال للشىء كن فيكون.

والله سبحانه وتعالى تحدث عن الكلمة كثيرا فى القرآن الكريم ولكنه ضرب مثلا فقال فى كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم].

الله سبحانه وتعالى يريد أن يجيب عباده المؤمنين فى كل كلمة طيبة وكل عمل طيب، ذلك لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، والكلمة الطيبة هى التى تمسح كل سوء وتذكر كل حسن، تتغاضى عن العيوب ولا تعرف إلا المحاسن، الإنسان فى هذه الحياة يشقى بأنه يضخم العيوب و يضخم المشكلات ولا ينظر إلى الزوايا الحسنة، والله سبحانه وتعالى يريد أن يشيع بين المؤمنين الحديث الطيب، وألا يتناول المؤمنون أعراض الناس أو سيئاتهم فيما يتحدثون، وبما أن الله كما قلنا هو رب العالمين وعطاء الربوبية يكون عطاء متساويا للناس كل الناس؛ بصرف النظر عن درجاتهم الإيمانية؛ وقد حرم الله سبحانه وتعالى الغيبة والنميمة وصورهما فى القرآن بصورة بشعة؛ فقال تبارك وتعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وهكذا كانت الصورة من البشاعة بحيث تصبح كريهة لكل إنسان، فلا يتصور أن يأتى أحد لرجل ميت؛ ويجلس أمام الناس ليأكل لحمه، صورة بشعة كريهة للقول السيئ أو الكلمة الخبيثة، ويوم القيامة يأتى الله بمن قال هذا القول السيئ ويأخذ من حسناته ويعطيها لمن اغتيب، فإذا نفدت حسناته جاء بسيئات من تم اغتيابه لمن اغتابه بالقول السيئ لذلك فإن سيدى جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه علم أن رجلا قد اغتابه؛ فطلب من خادمه أن يأتيه بأحسن أنواع التمر الموجودة عنده ثم انتقى طيبها وأرسلها فى طبق إلى الرجل الذى اغتابه؛ وكتب معها ورقة قال فيها: أعلمت أنك قد اغتبتنى بالأمس وبما أنك قدمت إلى أحسن ما عندك وهو حسناتك، فلم أجد أبدا من أن أرد الهدية فأعطيتك أحسن ما عندى وهو هذا التمر.

عندما نبدأ فى الحديث عن المثل الذى ضربه اللّه سبحانه وتعالى للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة؛ فإننا نتوقف عند تشبيه الكلمة بشجرة، لماذا شبه اللّه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة؟ لابد أن اللّه يريد أن يلفتنا إلى عدة معان فى تشبيهه الكلمة بالشجرة أولاً الشجرة تبدأ بذرة وتكبر وتكبر وتكبر، وكذلك الكلمة.. خبيثة كانت أو طيبة تخرج من الفم كبذرة صغيرة ثم بعد ذلك يتناقلها الناس فتكبر وتكبر وتشيع فى القرية؛ ثم تنتقل إلى القرى الأخرى وهكذا فكأن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا فى أول المثل إلى خطورة الكلمة فيقول لا تحسبوا أن الكلمة مجرد حروف ينطق بها الفم ثم تنسى وتنتهى وتذهب، بل هى كالشجرة التى تبدأ ببذرة ثم تنتشر فروعها وتكبر وتترعرع؛ لذلك فليراقب كل واحد منا كلماته ليعرف أن هذا الكلام له خطورته وله معناه ويريد اللّه أيضا أن يقول لنا: إن الكلمة محسوبة فلا نطلقها على عواهنها فإذا رميت البذرة فى الأرض قبل أن تنبت الشجرة فقد وضعت لها قرارا. والكلمة محسوبة على البشر لذلك قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

أى إن القول الذى يلفظه الإنسان هو محسوب عليه، فلذلك لابد أن يتدبر الناس قبل أن يقولوا السيئ لأنه محسوب عليهم، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الشجرة تكون بذرة ثم تكبر وتترعرع وتعطى ثمارا ثم هذه الثمار تتحول مرة أخرى إلى بذرة، وتؤخذ وتزرع فى أماكن مختلفة فتنتج شجرة من النوع نفسه، وهذا الشجر يأتى بدوره بثمر، والثمر هو الآخر يصبح بذرة صالحة للزراعة، وهكذا بلا نهاية حينئذ نعرف عظم ثواب الكلمة الطيبة؛ أو السنة الطيبة؛ وأيضا عقاب الكلمة الخبيثة؛ أو السنة الخبيثة ونعرف أن كليهما ينتشر فى الأرض كالشجرة التى تنتج البذرة، ويكون جزاء الذى استن سنة طيبة وقال كلمة طيبة أن له ثوابها وثواب من عمل بها إلى يوم القيامة، ويكون جزاء الكلمة الخبيثة أو السنة الخبيثة وزر صاحبها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ مصداقا لقول اللّه سبحانه وتعالى:

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ومن استن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1].

وهكذا كان اختيار اللّه سبحانه وتعالى لتشبيهه الكلمة بالشجرة اختيارا بالغ الدقة؛ لأنه يريد أن يقول إن البشرية ستتوحد والمسافات ستلغى أو تختفى، ويصبح ما يحدث فى أقصى الأرض يعرف فى كل مكان فيها خلال دقائق، فالشىء الطيب ينتقل بسرعة والشىء الخبيث ينتقل بسرعة ويظل فى المجتمع ويقلده الناس، وإذا نظرنا إلى داءات البشرية الآن، نجد أنها تأتى من سنن خبيثة ابتدعها بعض الناس الذين لا إيمان لهم ثم بعد ذلك

(١) سبق تخرجه.

أثمرت الشجرة؛ وانتقلت البذرة إلى أنحاء الدنيا كلها، انظر مثلاً إلى «الموضة» التى تتفنن فى تعرية جسد المرأة وإظهار ما حرمه الله، تجد أن «الموضة» تبدأ فى بلد خبيث لا إيمان فيه ثم تنتقل بعد ذلك ثمرة هذه الشجرة الخبيثة إلى دول العالم كله فتجدها فى كل عاصمة وفى كل دولة، فرغم أنها نشأت فى بلد واحد؛ إلا أن الثمرة قد انتقلت بعد ذلك إلى باقى دول العالم، وانظر إلى الجريمة التى ترتكب فى بلد من البلاد التى لا تطبق شرع الله، ثم تنتشر إلى باقى دول العالم.

إذن.. فلا يقتصر أثر الكلمة الطيبة أو السنة الطيبة على منبتها، بل هى تثمر ثمارا تملأ الدنيا، ولذلك كان التشبيه من الله جل جلاله بالشجرة.

إلا أن الله سبحانه وتعالى فرق بين الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة، صحيح أن كلا منهما يشبه الشجرة التى تنتج الثمار وتنشر البذور، ولكن الكلمة الطيبة قال الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أى إن الكلمة الطيبة، والسنة الطيبة باقية راسخة فى الأرض؛ لا تخرج منها أبدا وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة».

إذن.. السُنّة الطيبة والكلمة الطيبة متى بذرت فى الأرض تبقى ويعمل بها الناس قلوا أو كثروا فإنها لا تنتهى أبدا، بل الخير موجود دائماً ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وهنا يريد الله أن يلفتنا إلى أن جزاء الكلمة الطيبة والسنة الطيبة هو عنده سبحانه وتعالى فيقول: ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾.

أى لا تنتظر الجزاء من الأرض، أو لا تنتظر الجزاء كل الجزاء من الأرض، فإذا قلت الكلمة الطيبة فانتظر الجزاء من الله وابتغ الجزاء من الله وحده، فإذا نالك خير من الأرض كان خيرا، وإذا لم يحدث فأنت تعلم يقينا أن الجزاء من عند الله سبحانه وتعالى لأن الله هو القائل: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

أما إذا كنت تفعل الخير ابتغاء رضاء غير الله من أصحاب النفوذ وغيرهم، فإن الله سبحانه وتعالى يسلط عليك من ابتغيت رضاه على حساب الحق، فيكون هو أول من يؤذيك وأول من يهينك وتلقى منه السوء من حيث لا تتوقع ولا تحتسب.

إذن.. قول الله تعالى: ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾. إنما يريد أن يلفتنا به إلى أن لا ننتظر الجزاء عند أحد، بل ننتظر منه سبحانه وتعالى وقد نلقى خيرا فى الدنيا من كلمة الخير التى قلناها، ولكن الجزاء الحقيقى والجزاء العظيم هو عند الله سبحانه وتعالى فى الآخرة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

وهنا تظهر عظمة الدقة القرآنية فى قوله تعالى: ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾.

فهذا القول: ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ ينطبق على كل كلمة طيبة يمكن أن يقال تؤتى أكلها كل حين، بمعنى أنها كلما انتقلت من مكان إلى مكان وزرعت في المكان الجديد أو انتشرت فيه، جاءت بمحصول جديد لمن ألقى البذرة الأولى فأثابه الله عليها بأجر من عمل بها، أي إن الكلمة الطيبة أو السنة الحسنة في كل مكان انتقلت إليه كان لها ثواب، أو ثمر يؤتى به لصاحبها الذي سن هذه السنة الحسنة، والكلمة الطيبة في كل فترة من الفترات رغم أنه لم يبذل جهدا إلا في البذرة الأولى التي وضعها في الأرض هذه واحدة.

وإذا كانت الكلمة الطيبة عن شخص ما، فإن هذا الشخص كلما تذكر أنك قلت عنه كلمة طيبة أراد أن يجزيك عليها بالطيب، فكأنه في كل فترة من الفترات وكلما جاءت مناسبة كانت هذه الكلمة ثمرة، ولعلنا جميعا حين نعرف أن إنسانا تحدث عنا بطيب القول يستثير فينا عوامل الخير فنحاول أن نرد له هذا الكلام الطيب بما هو أطيب منه؛ ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾.

أي إن ذلك يحدث بمشيئة الله سبحانه وتعالى الذي يبارك في العمل الطيب ليس بقدرات البشر، ولكن بقدراته هو فنجد صاحب الكلمة الطيبة أو السنة الطيبة يأتيه الطيب بدون أن يعرف من أين أتاه ولا كيف أتاه، أي إن الله سبحانه وتعالى يسخر له من يسعى في العمل الطيب ويعطيه ثماره.

ويكمل الله سبحانه وتعالى بأن يبين لنا مثل الكلمة الخبيثة فيقول: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

أي إن الله يريد أن يقول لنا إن الكلمة الخبيثة شجرة أيضا، أي إن لها بذورا وتنتشر من مكان إلى آخر بثمارها التي تتحول إلى بذرة تنقل لتزرع في أماكن أخرى، فكما تنتشر الكلمة أو السنة الطيبة، كذلك الكلمة الخبيثة والسنة الخبيثة لها انتشار أيضا، ولكن هناك فرق؛ فيقول: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

أي إن الكلمة الخبيثة عطاؤها خبيث مثلها وهي تأتي بثمر لا يعطى نفعا بل يعطى ضررا للبشرية كلها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٨].

إذن.. كل سوء في الأرض هو بذرة بذرها إنسان سيئ لا إيمان له، ثم بعد ذلك انتقلت من مكان إلى مكان لتفسد حياة الإنسان على الأرض وتضع فيها ما يشقيه، والإنسان أعطاه الله المنهج ولكنه أراد بعقله أن يفسد الكون، ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾.

ومعنى أنها ﴿ ٱجْتُثَّتْ ﴾ من فوق الأرض؛ أنه لا قرار لها وهكذا العمل السيئ لا تجد له عطاء متجددا، ومن السهل جدا أن يقتلع من الأرض إذا ووجه بالحق أو بالعمل الطيب، فهو ليس متين القرار بحيث يثبت أمام الحق، ولكنه صاحب جذور ضعيفة،

ولذلك إذا وقعت معركة بين الحق والباطل فإن الحق هو الذى ينتصر والباطل يجرى مهزوما، وإذا أردت أن تعرف دقة هذا المثل فانظر إلى حكم رجل ظالم أو ملك ظالم، ذلك الذى يأمر بالسوء ويشيع الفحشاء ويبغى فى الأرض، بمجرد أن ينتهى حكم هذا الرجل الذى استخدمت فيه كلمات السوء وأفعال السوء؛ ويأتى ملك جديد إلا ويقتلع كل شىء قام به هذا الحاكم الظالم من جذوره، ولا يبقى منه شىء، بل على العكس تظهر الخبايا والخبائث التى كانت مخفية ويظهر الناس كلهم ليسبوا الحاكم الذى رحل، ويقتلعوا أنصاره وكل السنن التى اتبعها، ولا يشترط فى ذلك أن يكون الحاكم الذى جاء طيبا؛ بل قد يكون الحاكم الذى جاء أخبث من الحاكم الذى رحل، ولكن مع ذلك كل منهما يقتلع جذور الآخر ولا يكون حكم الظالم له جذور أبدا.

فإذا أخذنا حكم ستالين مثلا بما كان فيه من ظلم واعتداء على الناس إلى آخر ما نعرفه، نجد أن الحاكم الذى جاء بعده اقتلع كل الجذور التى وضعها ستالين، فأطاح برجاله ووضعهم فى السجون وأعدمهم وأطاح بالمظالم التى وضعها ستالين؛ بل أطاح بسمعة ستالين نفسه ولطخها وحطم تماثيله، وجاء النظام الجديد بظلم آخر أى إنه لم يأت بالعدل، ولكنه اجتث جذور ظلم ستالين ووضع هو جذورا جديدة، ثم جاء الذى بعده فأطاح بكل هذه الجذور التى اعتقد الناس أنها قد رسخت فى الأرض وأصبح لها قرار وأطاح بالرجال الذين اعتقدوا أن الدنيا قد دانت لهم وأنهم خالدون فى مناصبهم أطاح بهم جميعا.

واقرأ تاريخ الحكم الديكتاتورى فى العالم كله، حكم عبادة الفرد، تجد كل واحد يأتى يقتلع جذور الذى سبقه ويلطخه بالطين، ومع ذلك فإن الناس لا تعتبر ولا تتأمل فى كلمات الله سبحانه وتعالى فى أن الخبيث ليس له جذور فى الأرض، وأنه فى كل فترة قصيرة تقتلع جذوره وتلقى أشجاره وهم الرجال الذين قاموا برعاية هذه الثمرات السيئة والحرص عليها، تلقى هذه الأشجار كلها لتموت، ثم يأتى من بعده ببذور إما طيبة فتبقى وإما خبيثة فتقتلع بعد فترة ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

أى إن الخبيث قد يكون كثيرا بمعنى أنه يأتى حكم سيئ أو حاكم سيئ ثم وراءه حاكم سيئ ولكن لا جذور لهذا ولا جذور لذاك فمع كثرة الخبيث فهو يقتلع من الأرض دائماً؛ تماماً كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

ولعل فى هذا ردا على بعض الناس الذين يتعجبون من كثرة الخبيث فى الحياة الدنيا؛ ويحسبون أنه قد طغى على العمل الطيب والفعل الطيب، نقول لهم إن هذا الخبيث الذى ترونه لا قرار له فى الأرض وهو يقتلع كل فترة قصيرة، ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٨].

نأتى بعد ذلك إلى ختام المثل الذى ضرب به اللّه سبحانه وتعالى فى قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وهنا يخبرنا اللّه سبحانه وتعالى عن الدور الإيمانى الذى يتم، فيقول إن كثرة الخبيث قد تفتن المؤمنين وربما اهتز إيمانهم؛ حينئذ تكون المشيئة محيطة بكل مؤمن لتثبته أمام هذا الخبيث الذى يبدو كثيرا فى الأرض، فيعطيهم اللّه القول الثابت أى إنه يريهم من حلاوة الإيمان وصدقه ما يجعل قلوبهم تثبت على الإيمان ولا تهتز واللّه سبحانه وتعالى هو المعين للمؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

هنا تمتد مشيئة اللّه لتقول للمؤمن لا تخش شيئاً مما يحيط بك، فهذا كله لن يستطيع أن يصل إليك لأن اللّه معك وما دام اللّه معك فأنت القوى والدنيا كلها لا حول لها ولا قوة فاطمئن إلى أن اللّه يرعاك ثم تمضى الآية الكريمة: ﴿ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.

أى إن التثبيت من اللّه سبحانه وتعالى لا يكون فى الحياة الدنيا وحدها، بل أيضاً يوم الهول الأكبر فى الآخرة فيقفون أمام اللّه سبحانه وتعالى يقولون الحق، ويلهمهم اللّه الصواب وينجيهم من العذاب.

ثم تمضى الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

أى إن اللّه سبحانه وتعالى لا يثبت إلا المؤمنين، أما الظالمون فإنه يتركهم ليزين لهم الشيطان الخبيث فى الأرض فيندفعوا مفتونين بكثرة الخبيث غير منتبهين إلى الحقيقة؛ وإلى أن الطيب وحده هو الذى يمكث فى الأرض، ثم ينبهنا اللّه سبحانه وتعالى إلى أن ذلك لن يحدث خارج المشيئة، بل إن اللّه سبحانه وتعالى شاء أن يخلق الإنسان مختارا صالحا لأن يفعل الخير والشر، وأن منهج اللّه ومشيئته اقتضت أن يأتى الإنسان إلى الإيمان مختارا، ولذلك فإن اتجاه الإنسان إلى الظلم أو الضلال أو السوء إنما هو خاضع للمشيئة الإلهية التى أعطت الإنسان حرية الاختيار، وبالتالى ليكون الحساب عدلا فى الآخرة.

إلى هنا ونأتى إلى ختام المثل الذى ضربه اللّه سبحانه وتعالى عن الكلمة الخبيثة والكلمة الطيبة، وكيف أن كلا منهما مثل الشجرة التى تنبت الثمار وتنتشر منها البذور فى الدنيا كلها، ولكن الكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء يأتينا منها الخير حتى يوم القيامة والكلمة الخبيثة ليس لها قرار فى الأرض؛ فهى تقتلع بعد فترة قصيرة وذلك بأن يسلط اللّه رجلا صالحا على رجل ظالم، أو يسلط ظالما على ظالم، وأن اللّه سبحانه وتعالى يثبت المؤمن ويعينه، ويترك الظالمين للشيطان ليضلهم.

المعجزة.. ومثل عيسى عند الله

الله سبحانه وتعالى ضرب لنا مثلا آخر عن كلماته هو: عيسى ابن مريم عليهما السلام فقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

الله سبحانه وتعالى هو الذى خلق الحياة وخلق الموت و خلق الكون و قضية الخلق لا يستطيع أحد أن يدعيها.

فهى محسومة لله تبارك وتعالى لأنه هو الذى قال إنه خلق ولم يجرؤ أحد أن يدعى الخلق ومن هنا فإن القضية ليست موضوع مناقشة، على أنه إذا كان الخلق إيجادا من عدم، بعض الناس يقول إننى صنعت كوبا أو إبريقا أو آلة فكأننى أوجدت شيئاً من عدم أى إننى خلقته نقول بادئ ذى بدء: إن الشىء الذى يوجد من عدم لغويا قد يكون خلقا، ولكن الإنسان الذى يصنع الكوب ويصنع الصاروخ ويصنع «ماكوك» الفضاء عاجز عن أن يصنع خلية حية، فأى صناعة تستطيع أن تنتج لك ما تشاء ولكنها لا تستطيع أن تهب لهذا الشىء الحياة، فلا يمكن أن يتكاثر بالتوالد ولا أن ينمو نموا ذاتيا، ولا أن تكون له خاصية العقل والفكر التى تمكنه من الحياة حتى ما يطلقون عليه الإنسان الصناعى الذى يستخدم الآن فى الصناعات بالدول المتقدمة فهو لا يستطيع التمييز ولا التكاثر ولا الرقى ولا أى شىء من خصائص الإنسان الحقيقى ولكنه عبارة عن آلة معقدة لديها أوامر محددة تقوم بها بحركات ميكانيكية محسوبة ولا شىء غير ذلك، ولذلك لا يستطيع العلم أن يقول إنه خلق إنسانا صناعيا، ذلك أن ما صنعه العلم ليس فيه شىء من صفات الإنسان التى تميزه عن غيره فلا هو يفهم، ولا هو يفعل، ولا هو يستطيع أن يتصرف إذا حصل خلل، ولا يتناسل دائما يبقى على حاله منذ ساعة إيجاده حتى يبلى ويتحطم يقوم بالحركات نفسها والترتيب نفسه بالطريقة نفسها ويكرر نفسه كل عدة ثوان أو عدة دقائق، ولا يغير حركته إلا بتوجيه جديد يدخل فيه الإنسان، أو ما اخترعه الإنسان وتكون النتيجة آلات صماء بلا حياة.

ولكن بعض الناس يتساءل عن معنى الآية الكريمة:

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال أحسن الخالقين فلابد أن هناك من هم أدنى درجة من الخلق، والإيجاد من عدم نقول: إن هؤلاء الأدنى درجة هم الذين يضعون الأشياء الصماء التى لا حياة فيها ولا حركة، إلا أن تكون حركة ميكانيكية لا تتغير ولا

تتبدل وإلا أن تكون حياة صماء هى الجماد وبعد ذلك لا شىء، أما الحياة نفسها بالمعنى الذى تعرفه فى كل مخلوقات اللّه التى يوجد منها التكاثر وتنتقل من جيل إلى جيل، فذلك هو خلق اللّه.

ولقد تحدى اللّه تعالى فى القرآن الكريم فى خلق الحياة فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ﴾ [الحج].

وهذا التحدى الذى طلب منا اللّه سبحانه وتعالى أن نستمع له أو ننتبه إليه هو تحد للبشرية كلها منذ خلق آدم وحتى قيام الساعة، فلو اجتمع علماء الإنس والجن على أن يخلقوا ذبابة واحدة على ضعفها وتفاهتها لما استطاعوا أن يخلقوا حتى جناح ذبابة فيه الحياة التى يضعها اللّه فى بلايين المخلوقات فى كونه كل ثانية، ولقد استطاع الإنسان أن يصل إلى القمر، وربما استطاع أن يصل إلى المريخ بما كشفه اللّه سبحانه وتعالى من علم له، ربما أطلعه اللّه على القوانين التى يسير عليها الكون، وجعله يستفيد منها فى أن يحقق تقدما وسيطرة هذا كله ممكن، ولكن الإنسان لن يستطيع أن يخلق خلية حية، وهذا هو التحدى.

على أن اللّه سبحانه وتعالى لم يضرب مثلا بنبى من أنبيائه كما ضرب مثلا بعيسى عليه السلام فقال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وذلك بسبب الخلاف الذى نشأ حول معجزة ميلاد عيسى عليه السلام وكيف تم الإعجاز؟ ولقد كان هذا الإعجاز موضع جدل حتى يومنا هذا برغم مما حدثنا اللّه تعالى به.

على أننا لابد أن نبدأ القصة من أولها، قصة الخلق لنعرف أين المعجزة، وكيف حدثت فذلك هو أهم ما يمكن تقديمه من تفسير.

الخلق بدأ بآدم عليه السلام وكان خلقا أو إيجادا من عدم، أى لم يكن آدم موجودا، ووجد بكلمة كن من اللّه سبحانه وتعالى لم يكن أحد من البشر قد خلق بعد، ولذلك لم يكن لآدم أب ولا أم، أى إنه خلق خلقا مباشرا من اللّه سبحانه وتعالى أوجده بدون ذكر أو أنثى، وكانت هذه هى أولى معجزات الخلق بالنسبة للإنسان أن يتم خلق بشر بدون ذكر أو أنثى، وكان لابد لكى تمضى الحياة و تتكاثر أن يكون خلق كل شىء فيها من ذكر وأنثى، حتى يمكن أن يتم الوجود والتكاثر، فكان خلق حواء من ضلع من آدم أو من جزء منه، وتمت المعجزة الثانية من الخلق، وهى إيجاد خلق من ذكر دون أنثى، وهكذا وجد الذكر والأنثى فى الحياة بعد أن تم إعجازان أو معجزتان من معجزات اللّه فى الخلق، الأولى آدم بدون ذكر أو أنثى، والثانية خلق من ذكر بدون أنثى، ثم أراد اللّه سبحانه وتعالى أن تتم طريقة الخلق أو التكاثر من ذكر وأنثى فى كل مخلوقات اللّه سبحانه وتعالى

التى فيها حياة تعرفها، فالحيوان يتم تكاثره من ذكر وأنثى، والنبات يتم تكاثره بذكر وأنثى سواء كان التذكير والتأنيث فى الثمرة نفسها أو الزهرة أو كانت تحمله الرياح من ثمرة إلى أخرى، أو من زهرة إلى أخرى، وفى كل يوم يكتشف العلم إضافة جديدة تؤكد أن كل شيء فيه حياة تعرفها فى الكون يتكاثر ويتوالد من ذكر وأنثى.

بقيت بعد ذلك فى معجزة الخلق أن يتم الخلق من أنثى بلا ذكر، وبهذا يكون تمام إعجاز الخلق؛ فيكون الخلق قد تم بدون ذكر أو أنثى، وبذكر بدون أنثى، وأنثى بدون ذكر، وذكر وأنثى. وهذا تمام معجزات الخلق الأربع، ولو أنه لم يتم ميلاد عيسى من أنثى بلا ذكر لكانت معجزات الخلق غير تامة ولبقيت منها هذه المعجزة الأخيرة، على أنه كما قلنا فإن الخلق هو من صفات الله سبحانه وتعالى التى لا يشاركه فيها أحد، ومن هنا ورغم أن الخلق يتم من ذكر وأنثى فإنه يخضع لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى فى كونه، ذلك أنه لا يجتمع رجل وامرأة على إطلاقهما ليتم خلق جديد، بل إنه قد يجتمع الرجل والمرأة ويتزوجان سنوات طويلة متخذين بذلك أسباب الخلق التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى كونه، ومع ذلك لا يرزقان بطفل وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى].

أى إن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يبقى الخلق من طلاقة قدرته، فهو رغم أنه جل جلاله جعل أسباب الخلق الذكر والأنثى إلا أن المشيئة فى يده، فلم يجعل زواج الرجل والمرأة سببا للإنجاب على إطلاقه، ولم يجعل نوع المولود خاضعا إلا لمشيئته، فمشيئة الله هى التى تهب الذكور، وهى التى تهب الإناث، وهى الى تجعل إنسانا قد يتزوج عشرات السنين ولا ينجب؛ ثم بعد ذلك ينجب فجأة فلا يستطيع إنسان أن يقول إننى سأنجب طفلاً ذكرا ولن أنجب إلا الذكور، ولا يستطيع إنسان إن يقول إننى لن أنجب إلا بنات، ولا يستطيع إنسان أن يقول متى تزوجت فلابد أن أنجب.

على أننا هنا لابد لنا من وقفة قصيرة؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر الأنبياء فى القرآن الكريم من دون تعريف، فقال: موسى، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وإلياس؛ من دون أن ينسبهم إلى آبائهم أو أزمانهم بالدقة حتى أنه حينما ذكر الله سبحانه وتعالى موسى مع فرعون لم يعرف لنا من هو فرعون الذى أرسل موسى فى عهده، وعندما ذكر لنا قصة يوسف مع عزيز مصر لم يذكر لنا من هو العزيز الذى أرسل يوسف فى عهده ذلك أن قصص الأنبياء بما جاءوا يعالجونه من داءات البشرية وما أصابها من فساد ليست قصصا تتعلق بذاتية الأشخاص أو بالوقت الذى حدثت فيه، ولكنها داءات فى الحياة تتكرر فى كل عصر حتى يوم القيامة، ففرعون مثلا هو كل حاكم يريد أن يعبد فى الأرض، موسى هو كل إنسان مصلح مؤمن يقف يواجه هذا الحاكم وظلمه، وشعيب

هو كل إنسان ينصح قومه بألا يأكلوا حقوق الناس وأن يعطوا كل ذى حق حقه بالكيل والميزان، فإذا وجدت أمة تؤكل فيها حقوق الناس وتنجس فيها أشياؤهم ثم وجد رجل مصلح يدعو إلى الحق وإلى إعطاء الناس حقوقهم كاملة ويحارب هذا الداء الوبيل فى أكل حقوق الناس، فإننا نتذكر فى تلك اللحظة قصة شعيب عليه السلام وقومه، ونعرف ما يدعونا الله سبحانه وتعالى إليه فى هذه الحالة، وهكذا فى كل الداءات التى أرسل الأنبياء لعلاجها هنا ليست خصوصية الداء بالذات ولا قصة حدثت ولكن تتكرر بل الداءات تتكرر والله يريدنا أن نعرف الداء ويريد أن يعرف المؤمن المنهج الإيمانى تجاه هذه الداءات حتى يقاوم الظلم، والعدوان ليس فى صورة واحدة ولكن فى كل الصور التى جاء الأنبياء لمعالجتها، وهذا كمال الدين وجماله.

إذن.. فالعبرة من قصص الأنبياء متكررة، والداءات التى جاء الأنبياء لعلاجها فى الكون تتكرر، وإذا نظرنا إلى صورة الكون اليوم على اختلافها واتساعها وجدنا فيها فرعون وآله، وقوم لوط، ومدين، وثمود، وعبدة الأصنام والأوثان، وكل الداءات التى وردت وعالجها الله سبحانه وتعالى فى القرآن بقصص الأنبياء التى قصها علينا كلها موجودة وكلها متكررة إلا معجزة ميلاد عيسى عليه السلام، فهى لن تتكرر أبدا؛ ولذلك عندما ذكر الله سبحانه وتعالى قصة مريم فى القرآن الكريم لم يقل مريم فقط، ولكنه قال مريم ابنة عمران، بل إنه حددها بالاسم بين نساء العالمين فقال إن ذلك لن يحدث إلا مرة واحدة هى مريم ابنة عمران، ولن تنجب امرأة فى العالم بدون أن يمسها بشر إلا مريم ابنة عمران، وهنا أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى خصوصية هذه المعجزة، وأنها لن تتكرر مع امرأة أخرى فذكرها بالاسم منسوبة إلى أبيها، وعندما ذكر الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء لم ينسبهم إلى آبائهم، ولكنه عندما ذكر عيسى عليه السلام قال: «عيسى ابن مريم» نسبة إلى أمه مريم عليها السلام لأنه ولد بدون أب، ومعنى ذلك أن المعجزة هنا لن تتكرر ولن يولد طفل من أنثى بدون ذكر إلا عيسى عليه السلام؛ ولذلك نسبه الله إلى أمه حتى ننتبه لهذا الاختلاف فى أسماء الأنبياء فى القرآن الكريم الذين ذكرت أسماؤهم الأولى بدون نسبهم؛ ولأن عيسى عليه السلام ذكر منسوبا إلى أمه، ولقد قيل فى عدم نسبة الأنبياء وورثتهم هم ومن اتبعوهم من المؤمنين إلى أهلهم لأن أهل عشيرتهم هم المؤمنون مصداقا لقول الله تعالى عندما خاطبه نوح فى ابنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود].

ولذلك لم ينسبهم الله إلى أهلهم الذين قد يكون فيهم المؤمن وغير المؤمن كما حدث بالنسبة لأبى إبراهيم وامرأة لوط وابن نوح.

نعود إلى قصة مريم عليها السلام لنرى كيف أعد الله سبحانه وتعالى المعجزة حتى

تتم، فتلك المعجزة تكون قاسية على النفس جدا بالنسبة لأى امرأة لا تستطيع أن تواجه بها المجتمع، فكيف بامرأة صالحة ذكرها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم؟ لقد بدأ التمهيد للإعداد للمعجزة لتظهر على الأرض للناس قبل أن تولد مريم عليها السلام.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: ٣٥].

أى إن أم مريم نذرت ما فى بطنها ساعة علمها بالحمل ولم تكن تعرف هل ستلد ذكرا أم أنثى؛ نذرته لله سبحانه وتعالى. ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦].

كانت أم مريم تعتقد أن الله سيرزقها بولد، وتعتقد أن الولد أقدر على خدمة دين الله فى الأرض من الأنثى، ولكن الله شاء لكى يتم سبحانه وتعالى بقدراته معجزات الخلق بخلق من أنثى بدون ذكر، أراد الله سبحانه وتعالى لكى يتم هذا أن يكون المولود أنثى، وهنا اتجهت أم مريم عليها السلام وقالت: ﴿ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾. ثم تضرعت إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.

هنا يبرز سؤال مهم؛ كيف عرفت أم مريم أن مريم سيكون لها ذرية؟ والجواب على ذلك سهل فكل طفلة تولد يتوقع لها أهلها أن تتزوج وأن يكون لها ذرية، فلذلك كان دعاء أم مريم دعاء بشريا عاديا تدعوه كل أم لطفلتها، ولم يدر فى خلدها أن هذه الطفلة الصغيرة التى أسمتها مريم سيجرى الله عليها بقدراته إتمام معجزات الخلق من أنثى بلا ذكر.

وذهبت مريم تتعلم الدين وتتعبد، وكفلها زكريا وهو نبى الله ومن الصالحين وهو شقيق والدتها كفلها لتتعبد لله سبحانه وتعالى فى محراب بعيدا عن الناس ولكن زكريا لاحظ شيئاً غريباً، وكانت بداية إشارة من الله بمعجزة حتى تستطيع مريم أن تتقبلها، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً؛ كان يجد عندها فاكهة الشتاء فى موسم الصيف، وفاكهة الصيف فى موسم الشتاء، وكان زكريا يتعجب من ذلك ويسأل لماذا يحدث هذا؟ فلا يجد جوابا، ولم يطق زكريا صبرا فوجه سؤالا مباشرا إلى مريم: ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ ﴾؟ أى يا مريم من أين تأتيك هذه الفاكهة فى غير أوانها وكان جواب مريم بسيطا صريحا كالحدث نفسه: ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

ولابد هنا أن ننتبه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد بدأ يجعل مريم تحس بطلاقة القدرة فى لقاء مباشر مع هذه الطلاقة التى تعدها بعد ذلك بأن تحس تماما و تعرف أن الله يفعل ما يشاء، ولا يحدث عن إيمان غيبى فقط، ولكن عن حقيقة واقعة هى أن تأتيها الفاكهة فى غير موسمها، فتألف هذه الطلاقة واقعاً حتى إذا وضعت من دون أن يمسها رجل لم تكن الصدمة عنيفة عليها بل أحست باختيار الله لها ليتم عليها معجزات خلق الإنسان.

هنا توقف زكريا عند كلام مريم وأراد أن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه بطلاقه قدرته الولد الذى يرث زكريا، وزكريا فى ذلك الوقت شيخ كبير، وامرأته عاقر، ولقد أخذ بالأسباب أولاً فتزوج ولكن الله لم يرزقه الولد بالأسباب، فأراد أن يطلب من الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته بعد أن انعدمت الأسباب، وبعد أن أصبح هو شيخا كبيرا وامرأته عجوزا، ومنطق الدنيا ومنطق الأحداث يقول إنهما لن ينجبا، أراد أن يعطيه الله بطلاقة القدرة الذى لم يحصل عليها بالأسباب.

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران].

ونفهم من سياق الآيات أن الدعاء إلى الله تم وزكريا يصلى لله مبتهلاً.

حين حدث هذا وتجلت طلاقة قدرة الله لزكريا يعرف أن مريم صادقة تماما فيما قالت، وأن ما يأتيها من رزق فى غير أوانه هو من طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى أخذته الأسباب مرة أخرى ورفع يديه إلى السماء قائلاً: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠].

وزكريا رغم أنه نبى ومن الصالحين حين أتته طلاقة قدرة الله لتهبه الغلام بعد أن انعدمت الأسباب، سواء من ناحيته أو من ناحية زوجته ليتم له ذلك وقف مبهوتا مبهورا، وقد كان اللقاء مع طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى لقاء قويا زلزل نفسه، فقال يا رب: أنا شيخ كبير وامرأتى عاقر كيف ستهبنا الولد وقد فقدنا كل أسباب القدرة على ذلك، وهنا قال الله سبحانه وتعالى: لا تسأل يا زكريا كيف، فهذه الكلمة ليس لها مكان عند الله إذ أن الله هو خالق كل شىء، ومن هنا فإنه يقول للشىء كن فيكون ليست هناك كيفية، فالله سبحانه وتعالى قادر على كل شىء ولا يحتاج لتبرير ما يحدث ولا يحتاج لمعونة فيما يريد أن يخلق، ومن هنا فكلمة كيف هذه لا يسأل عنها الله سبحانه وتعالى، بل يسأل عنها من هم دون الله، إن الله هو الذى يخلق ولا قيود على قدرته ولذلك كان الجواب من الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠].

وكان جوابا إيمانيا قويا لم يستطع بعده زكريا أن يسأل أو يقول شيئاً؛ لأن الجواب لا يفتح المجال لأى سؤال، فطلاقة قدرة الله فى كونه تفعل كل شىء.

أما مريم التى عرفت طلاقة القدرة فى محرابها فيما يأتيها من رزق لا يخضع لأسباب الدنيا فقد كانت راضية بذلك تحس أنه من رضا الله سبحانه وتعالى عليها، وظلت مريم تتعبد فى محرابها تعبد الله الذى اصطفاها على نساء العالمين إلى أن جاء إتمام معجزة خلق الإنسان، وهنا نزلت الملائكة لتبشر مريم بالمعجزة. ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران ٤٥].

هنا نتوقف عند قوله تعالى: ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ فنقول إن الله سبحانه تعالى حين يبشر زكريا بمولد ابنه يحيى قال: ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال الله لبنى إسرائيل:

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ ﴾ [يونس: ٣٣].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٦].

وقال الله جل جلاله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ [غافر: ٦].

وقال: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ [فصلت: ٤٥].

قال سبحانه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧].

وقال: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٧].

وقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى قد استخدم لفظ كلمة بمعنى أنه أمر يتم ولا رجوع فيه وأنه قد استخدمها فى عدة مواضع فى القرآن الكريم كما بينا.

حين جاءت الإشارة إلى مريم، ورغم أنها رأت رؤيا اليقين طلاقة الله سبحانه وتعالى فى أن يرزقها بما يشاء فى أى وقت يشاء، فإنها اهتزت بعنف اتجهت إلى الله سبحانه وتعالى:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٧].

هنا رجعت مريم إلى الأسباب مرة أخرى وهزتها المعجزة من داخلها وقالت يا ربى كيف أرزق بولد، وأنا عذراء لم يمسسنى بشر، ولم يقترب منى إنسان، وحينئذ جاء الرد من الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ أى إن هذا السؤال لا يسأل لله، والله بقدرته يفعل ما يشاء وكلمة كيف قالها زكريا وكان رد الله سبحانه وتعالى عليها هو الرد نفسه كذلك الله يفعل ما يشاء، وكان رد الله على مريم كذلك الله يخلق ما يشاء.

ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد فرق فى لفظ واحد اختلف فى الردين، فعندما رد على زكريا قال يفعل ما يشاء، لماذا؟ لأن الأسباب موجودة ولكنها لا تفعل، والله حينئذ يجعلها تفعل، ولكن فى رد الله سبحانه وتعالى على مريم لم تكن هناك أسباب فمريم لم

يمسسها بشر؛ ولذلك قال الله: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ لأنه فى هذه الحالة لن يأمر الله الأسباب لتفعل فالأسباب غير موجودة، ولكنه سيخلق خلقا مباشرا لإتمام معجزات خلق الإنسان، وهكذا الاختلاف فى الردين بالتدليل بكلمة واحدة على أن المستفهم عنه شيء واحد، ولكن الذى سيتم فى الحالتين مختلف، ففى الحالة الأولى عند زكريا سيجعل الله الأسباب تفعل وفى الحالة الثانية سيخلق الله بشرا بقدراته سبحانه وتعالى.

ومضت الملائكة فى بشارتها من الله إلى مريم تبين لها أن من سيخلقه الله سيكون له شأن كبير: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩ ﴾ [آل عمران].

وهكذا حملت الملائكة بشرى الله إلى مريم ليثبتها على ما هى مقدمة عليه وكيف ستواجه الناس وماذا ستقول لهم وهل سيصدقونها؟ فإذا بالملائكة تبشرها من الله بأن من سيتم خلقه سيكون رسولا من الله، وسيؤيده بالمعجزات الدامغة التى تحمل الدليل على صدق ما ستخبر به مريم قومها، وأن عيسى ابن مريم الذى سيأتى متمما لمعجزات الله فى خلق البشر بأن يخلق من أنثى بلا رجل، ستكون معه الدلالة على صدق المعجزة التى تمت بأن سيخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله، وأنه سيحيى الموتى بإذن الله، وأن هذه المعجزات الخارقة التى أعدها الله سبحانه وتعالى قد أعدت لتكون تأييدا قويا على صدق رسالة عيسى عليه السلام، وصدق تبليغه عن الله وعلى صدق المعجزة التى تمت بطريقة ميلاده.

ورغم كل هذا التثبيت فإن مريم قد اهتزت من المعجزة، وعندما أراد الله سبحانه وتعالى أن تتم عملية الخلق وأرسل إليها الملك ليتم النفخ من روح الله، تماما كما حدث فى خلق آدم عندما قال الله تعالى فى خلق آدم: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر: ٢٩].

عملية الخلق نفسها تمت مع عيسى عليه السلام، الفرق الوحيد أن آدم خلق من غير ذكر أو أنثى، وعيسى خلق من أنثى بغير ذكر، عندما جاء الملك مفوضا من الله سبحانه وتعالى ليتم نفخ الروح. ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١ ﴾ [مريم].

أى إن مريم رغم كل التثبيت الذى تم اهتزت وقت المعجزة، وأعادت الأمر إلى الأسباب مرة أخرى، فجاء الرد من الله سبحانه وتعالى وكان الرد نفسه: ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ ثم جاء بعد ذلك الشرح لما يحدث، وكيف تتعجبين من حدوث هذا الخلق من الله سبحانه

وتعالى وهو شيء هين على الله لا يحتاج إلى جهد وليس أمرا صعباً، فكل ما فى هذه الدنيا وكل ما يريده الله هو هين عليه.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾.

وهكذا تم اختيار مريم بالحكمة من كل ما يحدث، إن هذا الطفل الذى سيأتى هو آية من الله سبحانه وتعالى للناس لإتمام آيات خلق الله للبشر، وليعلم الناس أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق بشرا من أنثى بدون ذكر، وقادر على أن يخلق بشرا من ذكر وأنثى، تلك هى الآية التى أراد الله سبحانه وتعالى أن يبينها للناس، ثم هو رحمة لبنى إسرائيل يعلمهم الكتاب والحكمة، ويحل لهم بعض الذى حرم عليهم، وهو رحمة لهم فى أن يصحح لهم الذى حرفوه ويخرجهم من ماديتهم وعبادة الذهب و المال إلى الروحانيات، ثم يختتم الله سبحانه وتعالى الآية حسما للأمر بأن ما يحدث من معجزة الخلق هو أمر مقضى من الله سبحانه وتعالى لا رجوع فيه ولا توقف فى تنفيذه.

حينئذ نكون قد وصلنا إلى الحكمة من المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا لماذا تعجبون من خلق عيسى من أنثى بلا ذكر ولا تعجبون من خلق آدم بدون ذكر وأنثى و المعجزة فى خلق آدم أكبر وأشمل من معجزة خلق عيسى فكلاهما خلقته من تراب وكلاهما نفخت فيه الروح وإذا كنتم تريدون أن تعرفوا لماذا تمت هذه المعجزة فهى لم تتم دون ما حكمة بل كانت لها حكمة هى إتمام معجزات خلق البشر وقد سبق إتمام هذه المعجزة منى إعداد لمريم عليها السلام، وتثبيتها بطلاقة القدرة حتى إذا جاء أمر الله لم يزلزلها ومع ذلك فإنها اهتزت حين جاءها الملك لنفخ الروح وتساءلت كيف تضع غلاما ولم يمسسها بشر فجاء الرد من الله سبحانه وتعالى أن الله يخلق ما يشاء بدون أسباب؛ لأن ذلك من طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى.

القرآن.. ومثل الجنة والنار

اللّه سبحانه و تعالى ضرب فى القرآن الكريم أمثالاً كثيرة للجنة والنار، وهى أمثال امتدت فى معظم آيات القرآن الكريم، وذلك حتى يقرب للعقل البشرى عظم ثواب المطيع، وعظم عقاب الكافر أو غير المؤمن؛ وذلك لأن هذه هى نهاية الخلق أو هدفه فكما قلنا إن اللّه سبحانه وتعالى قد خلق أجناسا مقهورة لطاعته، خلق الإنس والجان مختارين فى الطاعة، وطلب منهم أن يكونوا طائعين باختيارهم هم وذلك كما بينا فى الفصل الأول.

والإيمان كما بينا هو اختبار لحب اللّه فى القلب، فالإنسان المؤمن هو من كان اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، هنا يثور سؤال طالما وجه إلى، لماذا يعذب اللّه سبحانه وتعالى خلقه؟ ولماذا يوضعون فى النار؟

اللّه سبحانه وتعالى لا يريد العذاب لأحد بل يريد أن يدخلنا جميعا جنات النعيم خالدين فيها، وحب اللّه سبحانه وتعالى يجعله أرحم بنا من رحمة الأب والأم بأولادهما، اللّه خلق لنا هذا الكون كله بكل ما فيه من نعم خلقه بتمام قدراته، ووضع فيه قوى أكبر منا كثيرا كالشمس والقمر والجبال والبحار وغيرها، تلك القوى تستطيع أن تهلك ابن آدم فى لحظات، فالبحر إذا انطلق على اليابسة جردها من الحياة، والشمس إذا اقتربت من الأرض أحرقتها، والجبال إذا تزحزحت من مكانها لاختل توازن الأرض تماماً ولهوت فى الفضاء السحيق، والنجوم لو اختل نظامها واصطدمت بالأرض لدمرتها تماماً.

إذن . .كل هذه القوى أكبر وأقوى من الإنسان ومع ذلك سخرها اللّه قهرا لخدمة الإنسان فقال للشمس أشرقى كل يوم لتعطيه الضوء والدفء اللازم لحياته وتعطيه النور اللازم لعمله وتتفاعلى مع الأرض والنبات لتعطيه الطعام اللازم لحياته وقال للماء: كن أنهارا عذبة لتسقيه ماء عذبا يحفظ له حياته فى الأرض وكن بحارا لتعطيه الطعام وتنقله من مكان إلى آخر ووضع كل شىء فى مكانه لخدمة الإنسان ثم أوجد له طعامه فى الأرض ولم يوجد له طعاما واحدا ليحفظ حياته، بل وضع له الرفاهية فأوجد له طعاما مختلفاً ألوانه، فهذا حلو وهذا مر، وهذا له طعم مختلف محبب إلى النفس أى إن اللّه سبحانه تعالى لم يوفر الضروريات فقط للإنسان فى حياته بل وفر له الكماليات وأعطاه الرفاهية وفى ذلك يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

هكذا أوجد اللّه للإنسان كل النعم فى الكون، ووضع له ما يحفظ حياته فى جسده

وفى عقله وفى قدراته، وتم ذلك كله بقدرة الله وبدون أن يكون للإنسان أى دخل، وبدون أن يبذل جهدا وبدون أن يحرك قدما أو يدا.

وجاء الإنسان إلى الكون والنعمة كلها موجودة، ووجد الشجر الذى يستظل به من حرارة الشمس، ووجد الطعام الذى يأكله، والماء الذى يشربه، واللبن الذى يسقيه لأطفاله ثم كشف الله للإنسان من عمله فى الأرض ما يجعله قادرا على عمارتها، وقال له انطلق إلى عمارة الأرض تزدد خيرا وتزدد رفاهية وتزدد سعادة، وإننى سخرت لك كل ما فى الكون وأعطيتك كل هذا الرزق فوجب عليك أن تشكر الله ولم يطلب الله منا أن نسجد له ليلاً ونهارا، ولا حملنا ما لا طاقة لنا به، والله سبحانه وتعالى يقول لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، بينما أعطانا من العبادات ما يستغرق دقائق معدودة فى اليوم نصلى شكرا لهذه النعم التى لا تعد ولا تحصى وزاد الله فى رحمته وفضله، وقال من يشكرنى ويعبدنى طائعا مختارا أعددت له جنة فيها كل النعم بقدرات الله سبحانه وتعالى، وأبقيته فيها يتمتع بهذه النعم خالدا فيها لا يموت ولا يمرض ولا يتعب جزاء له على هذا الشكر وهذه العبادة التى قدمها؛ هذا هو كرم الله، وهذا فضله نعم بلا حدود، وكون بديع جميل يخدم الإنسان بلا مقابل، ثم جنة جعل الله فيها مكاناً لكل واحد من خلقه فكل منا له مقعد فى الجنة ومقعد فى النار.

ماذا فعل الإنسان؟ هل قدم الشكر الذى أوجبته هذه النعم عليه؟ لا بل إنه أخذ كل هذه النعم وتمتع بها من دون أن يؤدى حتى حق الشكر مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

ولم يفعل ذلك فقط ليته لم يقدم الشكر وسكت، ولكنه مضى إلى الكون يفسد فيه، فقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق، واحتكر خيرات الله فوجد فى الكون أناسا يملكون أكثر مما يستطيعون أن يأكلوه، وشعوبا أخرى تموت من الجوع، وماذا فعلت الشعوب التى تملك أكثر من حاجتها؟ أخذت نعمة الله التى خلقها لإطعام الإنسان وأفسدتها وألقت بها فى البحر، قطعت الأشجار والغابات التى هى رئة الكون يتنفس بها وبنت مكانها كل ما يلوث الجو ويفسده، خلق الله الإنسان حرا، فإذا بالإنسان يستعبد الإنسان، يستعبده بالمال، ويستعبده بالحاجة، ويستعبده بما خلق الله فى الكون للناس جميعا، خلق الله الإنسان آمنا، فإذا الإنسان يستعبده بالخوف والإيذاء وبكل ما هو كريه؛ يفسد به صنعة الله وخلقه، طلب الله من كل منا أن يحترم حقوق الآخر، فإذا بالإنسان يعتدى على حرمات أخيه وعلى ماله وعرضه.

بل انطلق الإنسان إلى أكثر من ذلك، فقد وضع الله سبحانه وتعالى له منهج الحياة فى الأرض وقال إذا طبقت هذا المنهج فإنك ستعيش حياة سعيدة فى الدنيا والآخرة، فجاء الإنسان إلى منهج الله فغيره وأفسده، وحين تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ المنهج بقدرته هو، بحيث لا يتم فيه تبديل ولا تغيير انطلق الإنسان تاركا منهج الله وبدأ يشرع لنفسه،

فيحلل ما حرم الله و يحرم ما أحله، ويضع عقله ظلما وزيفا وعدوانا فوق قدرات الله، فيشرع لنفسه مستخدما هوى النفس مضلا عن الله، ثم يمعن ويحاول ستر وجود الله ويعبد الأحجار والأصنام والحيوانات والإنسان، فإذا سألته هل هؤلاء جميعاً يستطيعون أن يخلقوا مثل هذه الحياة؟ يحاول أن يجادلك عبثا فى الخلق ولو أنه شهد الخلق لقلنا شاهد ومن حقه الكلام، ولو أنه علم أسرار الخلق لقلنا عالم يتحدث عن علمه، ولكن لا هذا ولا ذاك فلا هو شهده ولا هو يعلم ومع ذلك هو يكابر، ويحاول أن يضل الناس فيقول الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

هذا هو الإنسان وهذه هى نعم الله عليه وهذا هو كفره بهذه النعم حتى أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧].

لكن الله عدل وهو رب العالمين، ومن هنا فإنه يعطى لخلقه حقوقا متساوية وهو قيوم قائم على كونه، من هنا فإنه حريص على حقوق كل عبد من عباده، ضعيفهم وقويهم، صغيرهم وكبيرهم، فإذا اعتدى القوى على الضعيف كان ذلك اعتداء على حق من حقوق الله فى قيوميته على خلقه وإذا ظلم جبار الناس كان ذلك اعتداء على حقوق الله فى كونه والله سبحانه و تعالى بعدله كفل لكل منا حقا متساويا دونما تمييز بين جنس أو لون أو مركز فكلنا أمام الله متساوون لا فرق بيننا إلا بالتقوى، والله سبحانه وتعالى إما أن يكون قادرا على حماية خلقه وحماية الحقوق التى أعطاها لهم بعدله وإما أن يكون - تنزه وتبارك وتعالى - عاجزا عن ذلك والله قادر وقاهر، ومن هنا فإن عدله يقتضى القصاص لأنه لا موجب ولا مبرر للظلم إلا هوى النفس البشرية وحرص الإنسان أن يتميز على غيره وأن يعلو عليه و يستعبده ولذلك فإن القصاص يكون عدلاً ما دام الله قد أعطانا حقوقا متساوية من أن يغتر واحد منا على خلق الله فيفسده أو يهدر حقا من الحقوق التى أعطاها الله لخلقه.

ومع هذا ومع كل هذه النعم التى أعطاها الله للإنسان بلا مقابل و بدون جهد بشرى، بل بقدرة الله سبحانه وتعالى ومع أن الإنسان أفسد وظلم، وأكل حقوق غيره، وعبث فى كون هو من خلق الله ونقل الحياة من السعادة والازدهار إلى البؤس والشقاء، وقد شاءت رحمة الله سبحانه وتعالى أن يمهله المرة تلو المرة، وأن يبعث له الرسل رسولا بعد رسول، وأن يجعل عباده المؤمنين يذكرون البشرية كلها ببشاعة فعلهم و يذكرونهم بعذاب الله، فإذا تاب الإنسان ورجع عن ظلمه وندم على ما فعل تاب الله عليه برغم كل الآثام التى ارتكبها، وإذا رفع يديه إلى السماء وطلب المغفرة من الله غفر الله له وعفا عنه، ويذكره الله ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

ويقول توبوا إلى الله توبة نصوحا علنا نرجع علنا نفيق، علنا نتذكر، ولكننا لا نتذكر الله إلا ساعة الشدة، أو ساعة الضيق، أو ساعة الموت، تلك هى الساعات التى يتذكر فيها

الإنسان قوة الله سبحانه وتعالى وقدرته، فيرفع يديه إلى السماء ويصيح: يارب.. فإذا أُعطى كفر، تلك هى حقيقة الإنسان الذى فتح الله له من رحمته أبوابا واسعة، وفتح له من أبواب التوبة ما يسع الذنوب جميعا وفتح له من أبواب التذكرة ما جعله يفيق ويرجع، ولكنه أبى كبرا وعنادا إلا أن يمضى فى ضلاله متحديا كل منهج الله فكان حقا عليه العقاب.

الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعذب أحداً من خلقه؛ لأنه هو الذى خلقهم وأوجدهم فيقول فى كتابه العزيز:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

ولكن الإنسان هو الذى يوجب على نفسه العذاب، وهو الذى يوجب على نفسه اللعنة، وهو الذى يوجب على نفسه سوء المصير، الله يذكره برحمته، يذكره بنعمه، ويذكره بقدرته ويقول: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

أى إنت أيها الإنسان لا حول لك ولا قوة إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى، أفق، تنبه، قف لحظة واحدة لتتنبه إلى أين تسير، ولكن الإنسان لا يتنبه ولا يتدبر ولا يعرف إلى أين يسير ويذكره الله فى القرآن الكريم بالجنة والنار، ويضرب له الأمثال ليقرب له المعنى إلى ذهنه، ولكن الإنسان بدلا من أن يقبل على الله يزداد نفورا وبعدا عن الله سبحانه وتعالى ويزداد غرورا، حتى تحق عليه كلمة العذاب، وحينئذ حين يرى العذاب يحس ببشاعة ما فعل وما اقترفت يداه.

ولكن الجنة أو الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومادامت هذه هى الحقيقة، فكيف يضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال لنا بما لم نسمع ولم نر ولم يخطر على عقولنا؟

إذن.. فكل الأمثال التى ضربها الله فى القرآن الكريم عن الجنة والنار لا يمكن أن تصل إلى الحقيقة، ولكن الله سبحانه وتعالى ضربها لنا لتؤدى معانى ولتضع فى عقولنا ما هى فلسفة النعيم الذى ينتظرنا فى الجنة، وما هى بشاعة العذاب الذى ينتظره الكافرون فى النار، على أننا قبل أن نبدأ هذا لابد لنا من أن نتذكر، مثلا جاء فى القرآن الكريم، وذلك فى قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

أى إن الله شبه من يعلم منهجه ولا يعمل به كأنه فى منزلة أقل من منزلة الحمار لماذا؟ لأنه يحمل هذه الكتب التى فيها الحكمة والحق والبيان، ثم بعد ذلك لا يستفيد منها سوى أنه يحمل ثقلها؛ ولكن لماذا هذا الإنسان فى منزلة أقل من منزلة الحمار؟ لأن الحمار خلق ليحمل الأثقال فى الحياة وينقلها من مكان إلى آخر، ولم يعطه الله موهبة العلم أو ييسره ليتعلم؛ ولذلك هو حين يحمل هذه الكتب التى تحتوى الحكمة من مكان إلى آخر يؤدى مهمته فى الحياة، يفعل ما خُلق من أجله، ولكن الإنسان أعطاه الله موهبة

العلم وجعله صالحا لأن يتعلم ويعى، ويطبق منهج الله، ولكنه لا يؤدى مهمته فى الحياة فهو يحمل هذه الكتب ولا يعمل بها، وهو يقرأ ولا يعى فكأنه فى منزلة أقل من منزلة الحمار؛ لأن الحمار يؤدى مهمته فى الحياة، والإنسان الكافر المبتعد عن منهج الله لا يؤدى مهمته فى الحياة.

والله حين يضرب لنا الأمثال يقول: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

وعندما نقرأ هذه الآية ونتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[(١)]. يلاحظ فى حديث رسول الله أنه بدأ بالعين ثم الأذن ثم قلب البشر، لأن العين فى رؤيتها لها حدود ولكنها أهم من عدد من الحواس كاللمس مثلا، فإن العين ترى أبعد ما تلمس اليد أو كالشم مثلا، فإن العين ترى أبعد وأوسع من الرائحة التى يشمها الأنف، وهكذا.. ثم تأتى الأذن لأن الأذن أوسع فإنك قد تسمع صوت إنسان، ولكن نظرك لا يدركه والأذن تسمع تجربة غيرك وتعيها، أما العين فلا ترى إلا ما يحدث أمامها، ثم يأتى ما لا يخطر على قلبك أوسع كثيرا مما تراه عينك، وكما قلنا: إن المعنى يسبق اللفظ، ووجود اللفظ دليل على أن المعنى موجود وذلك ما بيناه بالتفصيل فى فصل سابق.

فإذا كانت المعانى التى فى الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فلا توجد لها ألفاظ فى اللغات تعبر عنها، ولذلك فإننا نلاحظ دقة الله سبحانه وتعالى فى استخدامه مثل الجنة بدون أن يطلق الألفاظ على إطلاقها؛ ولذلك فإن الحديث مختلف عما سنراه فى الجنة إنه حديث على قدر عقولنا وفهمنا بما نراه فى الدنيا.

نلاحظ أن الله سبحانه و تعالى حينما تحدث عن النعيم فى الجنة كان هناك خط مشترك يربط بين هذا كله، ذلك أن الله سينزع من كل نعمة من النعم ما يضايق الإنسان فى الدنيا أو ما يسبب له الضيق، فالماء فى الدنيا حين تتركه فترة راكدا فإنه يفسد ويصبح ماء آسنا يتغير طعمه فلا تستسيغه.

ولكن فى الآخرة لا شىء من هذا، الماء دائماً وأبدا سيكون حلو المذاق نقيا طاهرا كلما شربت منه ازدادت حلاوته فى فمك، وكذلك العسل، وكذلك باقى النعم كلها منقاة من الشوائب، منقاة من كل شىء مخلوقة خلقاً جديدا صافيا، ليس هو خلق الدنيا ولكنه خلق لا يلحقه أى نوع من العيوب التى تظهر فى نعم الدنيا حين تترك لفترة أو يساء استخدامها، بأن تتحول من حلال إلى حرام كالعنب الذى يصنعون منه الخمور من رزق

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط [٥/ ٣٤٧/ ٥٥١٠] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه.

حلال إلى رزق حرام، والخمر فى الدنيا إثم؛ لأنها تذهب العقل والإنسان حين صنعها ملأها بالشوائب الضارة التى تجعلها ضارة بالصحة وضارة بالجسد وضارة بالعقل، وفيها أذى كبير للإنسان لذلك حرمها الله، وهى حين تغيب العقل تدفع الإنسان إلى طريق الشر وإلى طريق الشيطان؛ لذلك فهى أم الكبائر من يشربها يستحل كل كبيرة، ولكنها فى الآخرة غير ذلك، إن الله سبحانه وتعالى ينزع منها كل هذه الشوائب ويوجدها بتكوين طاهر غير هذا التكوين الذى نعرفه فى الدنيا.

أى: إن كل نعم الله ستكون طاهرة مطهرة من كل شائبة، الماء لا يأسن ولا يتلف، واللبن لا يتغير طعمه، وكل شىء هو مخلوق ليكون نعيما مطلقا لا يكون فيه ما يكدر، أو ما يضر، أو يؤذى آكله أو شاربه، ذلك هو المعنى الذى يريد الله تعالى أن نفهمه من المثل الذى ضربه؛ لأن عقولنا لا تستطيع أن تعى ما هو موجود فعلا فى الجنة؛ لذلك يقول الله سبحانه وتعالى إن ما هو موجود سيكون نعيماً ليس فيه شائبة واحدة، ليس فيه ما يكدر الصفو أبدا ولا يصيب الإنسان بأى نوع من الضيق، ولو كان ضيقا خفيفا، ولذلك فهو نعيم يحيط به نعيم.

هذه بالنسبة لنعم الله تعالى، أما بالنسبة لأهل الجنة فيزال من نفوسهم كل ما يضايق أو تضيق به النفس، فيقول الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الحجر: ٤٧].

والغل فى القلب والحقد هما آفة الدنيا؛ أى إن الذى يفسد الدنيا ويفسد العلاقات بين الناس، ذلك الحقد الذى يصيب الإنسان فيجعل فى قلبه غلا نحو إنسان آخر فيفسد الجو بينهما ويصبح كل منهما عدوا للآخر، وتبدأ مع العداوة والبغضاء شرور الدنيا، والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن الإنسان فى الجنة سيكون مطهر القلب، وأن المجتمع فى الجنة سيكون مجتمعا متحابا، مجتمعا ليس فيه غل ولا حقد ولا كل ما يشوه الحياة الدنيا ويضع فيها أى نوع من أنواع الشقاء فالله يريد منا بهذا المثل أن نعرف أن الإنسان فى الجنة لن يكون كالإنسان فى الدنيا، بل سيكون مطهرا من كل الشوائب، ومن كل الأشياء التى قد تسبب أو تثير أى نوع من الشقاء، وفى ذلك يشير الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥]. أى إن التطهر هنا سيكون شاملاً وكاملاً كيف سيكون؟ وكيف سيتم؟ ذلك علم الله، ولكن الله سبحانه وتعالى كما سينزع من النعم كل ما يضايق النفس البشرية، كذلك سينزع من الإنسان كل ما يثير الشقاء فى المجتمع إلى أى درجة؟ تلك التى لا يعرفها أحد؛ لأنها من قدرات الله سبحانه وتعالى.

الجنة مجتمع مطهر من كل شىء يصيب من يعيش فيه بأى نوع من الضيق أو الشقاء أو عدم الراحة، وذلك يحدث بقدرة الله سبحانه وتعالى، هذا ما يريدنا الله أن نفهمه من هذه الأمثلة أنه سيأتى بنعم مطهرة وأزواج مطهرة و نفوس مطهرة ليصبح هذا المجتمع الطاهر نعيماً لا تدخل فيه ذرة واحدة مما يثير الضيق فى النفوس، فإذا وصلنا إلى هذه

الصورة لم نصل إلى كيف يكون النعيم فى الجنة، ولكننا نكون قد وصلنا إلى ما تستطيع عقولنا أن تفهمه عن معنى النعيم فى الجنة دون أن نصل إلى حقيقته.

على أن هناك قبل أن نترك هذه النقطة لنتحدث عن مثل العذاب فى النار تلك النقطة هى التى تثار دائما فى لقاءاتى، وخصوصا تلك التى تحدث مع المستشرقين فى أن اللّه سبحانه وتعالى أعد حوارا معينا فى الجنة للرجال ولم يعد مثل ذلك للنساء، نقول لكل من يثير هذا الحديث إنك لا تفهم طبيعة الحياة، ذلك أن كرامة المرأة فى أن يكون لها رجل واحد، والمرأة المبتذلة هى التى يتعدد عليها الرجال، أما المرأة الحرة فقد يموت زوجها فترفض أن تتزوج حتى لا يدخل عليها رجل آخر، وإذا كانت طبيعة خلق اللّه للمرأة هى أن كرامتها فى ألا يتعدد عليها الرجال فكيف يأتى اللّه سبحانه وتعالى فى الجنة وهى دار النعيم ويجعلها دار إهانة للمرأة.

وعندما سئلت هذا السؤال فى أمريكا، قلت لمن سألنى: هل لديكم مكان يستريح فيه النساء ويجدن رجالا متعددين؟ قال: لا. قلت: لماذا تقيمون مكانا يرتاح فيه الرجال جنسيا ويجدون فيه من الناس ما يريدون، ولا تقيمون المكان نفسه للنساء فيه رجال يقومون بالمهمة نفسها فسكت ولم يجب، وسألته هل هذا المكان الذى يوجد فيه النساء ويذهب إليه الرجال ليقضوا ساعة أو ساعتين فى متعة محرمة يخضع لإشراف طبى؟ فقال بحماس شديد: نعم إشراف طبى كل يوم. قلت: وهل تفعلون ذلك مع النساء المتزوجات؟ قال: لا. قلت: لماذا؟ فسكت. فقلت له: لأن تعدد الرجال على المرأة الواحدة يخلق الأمراض الخبيثة فهل تريد من اللّه سبحانه وتعالى فى الآخرة أن يهين كرامة المرأة وقد ارتفع بكرامتها فى الدنيا وأحل لها زوجاً واحدا؛ وهل تعدد الرجال على المرأة الواحدة الذى هو نوع من الإهانة ونوع من الجلب للمرض نريد من اللّه أن يجعله فى جنة كلها نعيم، إن المرأة الحرة ترفع رأسها إلى السماء وهى تمشى، وتموت جوعاً ولا تبيع جسدها هذه هى كرامة المرأة، وهى كرامة يحافظ اللّه سبحانه وتعالى عليها فى الآخرة، ويجعلها مرفوعة الرأس محفوظة الكرامة، فالحرة لا تزنى أبدا، والمرأة الكريمة الشريفة تكره أن يتعدد عليها رجل آخر حتى بعد أن يموت زوجها، وتلك هى الحكمة.

هذا عرض سريع للأمثال التى ضربها اللّه سبحانه وتعالى للجنة، فمجتمع مطهر من كل شائبة، وبشر مطهرون من كل ما يثير أى نوع من أنواع الشقاء أو التكدير فى النفس تأتى فيه الأشياء دونما تعب أو جهد وبمجرد أن ترد على خاطره يجدها أمامه فليس فيه تعب ولا نصب ولا غل ولا حقد كل النعم مطهرة وكل ما فيه مطهر، نعيم فى نعيم، ثم نضيف إلى ذلك أن هذا النعيم هو على قدرات اللّه سبحانه وتعالى وليس على قدرة البشر، وبذلك يكون نعيما فى أعلى درجات العلو وتمتعا فوق تصور كل بشر.

القرآن.. والعذاب فى النار

نأتى بعد ذلك إلى الأمثلة التى ضربها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للعذاب فى النار والعياذ بالله، هذه الأمثلة لا تمثل حقيقة واقع العذاب، ولكنها تعطينا كما أعطتنا الأمثلة عن الجنة صورة مقربة تجعلنا نفهم طبيعة هذا العذاب الرهيب، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا إن العذاب فى النار لا ينتهى أبدا، أى إنه عذاب مستمر لا يتوقف دقيقة واحدة فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

ونحن نعلم بعلمنا البشرى أن الأعصاب التى تنقل الحس إلى الإنسان والتى تجعله يشعر بالألم موجودة تحت الجلد مباشرة، ومن هنا نعرف أن المسألة ليست عذابا بحيث يحترق الجلد وتحترق معه الأعصاب ثم لا يشعر الإنسان بشىء، ولكن كلما احترقت الأعصاب بدل الله جلود الذين يعذبون فى النار بجلود أخرى تحتها أعصاب حية ليستمر الشعور بالألم والإحساس بالعذاب، لأن الله يريد بهذا المثل أن يقول لنا لا تحسبوا أن عذاب النار مجرد عذاب وقتى أو أن الإنسان يحترق ولا يحس بشىء بل كلما احترقت الجلود بدلناها بجلود غيرها ويعطينا الصورة البشرية التى نفهمها بأن العذاب مستمر لا يتوقف دقيقة واحدة، فإذا كان هناك خلود فى الآخرة فالعذاب فيها لا يتوقف أبدا.

ويمضى الله فى بيان صورة العذاب فى النار فيقول سبحانه وتعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة].

وهنا نجد صورة أخرى من العذاب هى أن الإنسان سيكون وسط هذا الجحيم مقيدا بالسلاسل، وأنت إذا أردت أن تعاقب إنسانا فى الدنيا فإنك تقيد حركته وتربطه بالسلاسل هذا وحده عذاب للبشر بدون أن يكون معه أو مضافا إليه عذاب آخر، فإذا أضفت إليه عذاب النار كان ذلك عذابا مضاعفا؛ لذلك فإن الله يريد أن يقول لنا مع هذا الألم المستمر من النار الذى يتجدد بتجديد الجلود فإن الإنسان لا يستطيع أن يتحرك يمينا ويسارا لأنه ربما خففت عنه الحركة العذاب قليلاً، ولكن حتى هذا التخفيف غير موجود فهو مقيد فى مكانه لا يستطيع أن يتزحزح عنه مما يجعل الشعور بالعذاب مضاعفا، ثم يضاف إلى ذلك الماء الذى يشربه والطعام الذى يأكله.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [النبأ].

القرآن.. وطعام أهل النار

فى ظل هذا العذاب المقيم، والنار تأكل جلودهم التى تعاد إليها الحياة، والسلاسل والأغلال تحيط بهم، يطلبون الماء عله يكون فيه برد يخفف هذا العذاب ولو للحظة واحدة فيؤتى لهم الماء، ولكنه ماء يغلى ومن اللهفة على الماء يشربونه فبدلا من أن يخفف عنهم العذاب يزيده ويقطع أمعاءهم، ويزيد من إحساسهم بالعذاب بالألم الرهيب ثم بعد ذلك يأتى لهم الطعام لعله يقيم أودهم يقول الله تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ﴾ [الصافات].

هنا يتحدث الله سبحانه وتعالى ليصور بشاعة ما سيأكله أهل النار فيقول: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾. ولك أن تتصور ما نوع الشجرة التى تخرج من نيران خالدة وكيف يكون كل ما فيها من نار ثم يتحدث الله سبحانه وتعالى عن طلع هذه الشجرة وثمارها فيقول: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾.

كيف يأتى هذا التشبيه ولم ير أحد منا الشيطان ولا يستطيع أن يفهم معنى رؤوس الشياطين، لأنه لم ير رؤوس الشياطين.

نقول إن ذلك تصوير بالغ فى الدقة، فلو أنك قلت للرسامين فى العالم ارسموا لى صورة رأس شيطان لأمسك كل واحد منهم بريشته وألوانه، ورسم شكلاً بشعا مخيفاً، ولكنك إن أخذت هذه الأشكال وطابقتها على بعضها البعض لن تجد شكلاً واحدا متفقا مع الشكل الآخر؛ ذلك أن كل واحد منهم قد رسم صورة بشعة كما تخيلها، وكل خيال مختلف عن الخيال الآخر، فلو كان للبشاعة شكل واحد لخرجت كل الصور متطابقة، ولكن هذا يمثل بشاعة، وهذا يمثل بشاعة. والبشاعة عندى تختلف عن البشاعة عندك، وقد يمسك أحد الرسامين بصورة من الصور التى رسمها زميل له ويقول إن هذه ليست رؤوس الشياطين إن الصورة ليس فيها أى نوع من البشاعة وهى لا تخيف.

ولهذه الحكمة ضرب الله هذا المثل، هو لم يأت بشىء يعرفه الناس، فما يخيفني قد لا يخيفك، وما يفزعنى قد لا يفزعك، والله يريد إفزاعاً عاما لكل واحد منا، فهو يأتى بكلمة رؤوس الشياطين ثم يطلق العنان لخيال كل فرد منا ليتصور صورة الشيطان الذى يفزعه، فكأن الصورة فى هذه الحالة تكون مفزعة للناس جميعا، والله يلحق مجهولا بمعلوم؛ لأن المجهول فى هذه الحالة متخيل عند الناس بوجوه مختلفة.. هذا يتخيله بوجه، وهذا يتخيله بوجه آخر، ولكن العامل المشترك فى هذه الخيالات كلها هو الفزع

والخوف، ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطانا تشبيها بمعلوم لدينا نعرفه يفزع منه الناس لوجدت بعض الناس لا يفزعون منه، فالثعبان مثلا يخيفنى ويفزعنى، ولكنه بالنسبة لصائد الثعابين شىء عادى جدا لا يثير الفزع فى نفسه؛ بل إن صائد الثعابين ينبش جحور الثعابين بحثا عنها، بينما أنا لو رأيت جحر ثعبان لوليت هاربا من الفزع، والنمر، والأسد، والحيوانات المفترسة تخيف الناس، ولكن صائد هذه الحيوانات لا يخافها وربما لا تكون هى فى طريقه فيذهب ليبحث عنها.

إذن.. قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ هو قمة البلاغة لإثارة الفزع فى كل نفس بشرية، فكأنما أهل النار حينما يطلبون طعاماً لا يجدون إلا شجرة الزقوم، وهم يفتنون بها فيخيل إليهم أنها طعام جيد فإذا أتى بها إليهم أثارت فى نفوسهم الفزع والرعب من بشاعتها وكأنها رؤوس شياطين تثير الخوف والفزع فى نفس كل واحد منهم ولا تجد إنسانا واحدا فى النار لا يصاب بالفزع من هذا الطعام.

نكون بذلك قد وصلنا إلى الحكمة من التشبيه الذى ورد فى القرآن الكريم بالنسبة للجنة والنار، وإن كان هذا التشبية ليس هو الواقع بإطلاقه، ولكنه يعطينا الفكرة العامة من الواقع دون حقيقته، فالجنة نعيم فى نعيم فى نعيم، فالرزق يأتى بلا عمل والنعم كلها مطهرة من كل شائبة، وأهل الجنة مطهرون من كل غل أو حقد، والصورة بالنسبة للنار عذاب دائم لا يذهب لحظة واحدة، تجدد فيها الجلود لدوام الإحساس بالألم ويقيد فيها الناس بالسلاسل لدوام الإحساس بالضيق ويقطع أمعاءهم الماء ويأتى الطعام إليهم فيملأ نفوسهم رعبا فى كل مضغة ألم، وفى معدتهم نار وألم، وفى أمعائهم ألم شديد.

على أنه ثار فى الفترة الأخيرة سؤال حول المثل الذى ضربه الله سبحانه وتعالى بالنسبة للملائكة الذين يقفون على أبواب النار والعدد الذى ذكر فى القرآن.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠].

القرآن الكريم.. والكمبيوتر

قبل أن نختم كلامنا عن الأمثال فى القرآن الكريم، لابد أن أرد على ما يثار حول الأعداد فى القرآن الكريم ومعناها إلى آخر ما يقال هذه الأيام، ولقد أشرت إلى ذلك إشارة بسيطة فى الصفحات السابقة ولكن لابد لنا من العودة لإيضاح عدد من الأشياء.

وقبل أن نبدأ الحديث لنا وقفة مع ما يقال على استخدام العقل الإلكترونى أو «الكمبيوتر» بالنسبة للقرآن الكريم، ذلك أن بعض الناس يتوهم أننا ما دمنا قد استخدمنا العقول الإلكترونية فإننا قد اتجهنا إلى شاهد عدل لا يخضع لهوى النفس، وإننا جميعا لابد أن نحنى رؤوسنا إجلالا واحتراما للنتائج التى يصل إليها الكمبيوتر أو العقل الإلكترونى وأن نسلم بها تسليماً قاطعا، باعتبار أنها آلة صماء، لا يدخل بها هوى النفس أو الهوى الشخصى.

نقول لهؤلاء جميعا إنكم قد دخلت فى قلوبكم الغفلة، ذلك أن هذه العقول الإلكترونية تعمل وفق برامج يعدها الإنسان، وأن الإنسان الذى يعد هذه البرامج إذا كان لديه هوى النفس ، فإنه يستطيع أن يعد للكمبيوتر برنامجا يوافق هوى النفس البشرية، وأنه هناك معلومات توضع فى الكمبيوتر وتخزن فى ذاكرته، فإذا كانت هذه المعلومات سليمة وصحيحة جاءت النتائج سليمة وصحيحة، وإذا كانت المعلومات يدخلها هوى النفس جاءت النتائج طبقا لهوى النفس، الكمبيوتر آلة صماء تنفذ ما يلقى لها من معلومات، وهى لا تفكر ولا تستطيع أن تفكر لتمنع هوى النفس من أن يصل إلى النتائج التى يريدها سواء أكانت هذه النتائج صحيحة أم مفروضة، ولذلك فإن علينا أن نأخذ هذه المسائل بحذر شديد، وأن نعرف أن المعلومات التى أعطيت إلى الكمبيوتر معلومات خاطئة ليصل إلى نتائج خاطئة.

فمثلا يقال له: ما هو عدد الحروف الذى يقبل القسمة على ١٩، فيبدأ فى العد حتى يصل بجمع حروف سورة أو سورتين إلى العدد الذى يقبل القسمة على ١٩، فإذا لم يكن هذا العدد، جمع حروف سورة أخرى، وهكذا حتى يصل ذلك الذى استخدم العقل الإلكترونى إلى غرضه من تضليل البشر، وكما نرى العقل الإلكترونى لا يفعل شيئا إلا تنفيذا لأوامر تعطى له، وهو فى هذه الحالة إنما هو عبد للبرنامج الذى فى داخله.

ولذلك فإن كل مؤمن لابد أن يستبعد من حياته تماما مسألة استخدام الكمبيوتر فى القرآن الكريم، ويعرف أن وراء هذا الاستخدام شخصا وضع البرنامج ومعلوماته ليصل إلى غرضه وأن هذا الشخص هو الذى يعطى العقل الإلكترونى ليعمل ويوجهه كيف يشاء.

تلك مقدمة لابد منها قبل أن نبدأ الحديث لكى يعرف الناس جميعا، أن النتائج التى أذيعت عن طريق العقل الإلكترونى يدخلها هوى النفس، وأنها أعدت بمهارة لتضل الناس وتعطى غير الحقيقة، مستخدما كلمة الكمبيوتر أو العقل الإلكترونى لتضع الخداع فى عقولنا، وتوهمنا أن ما يحدث هو نتيجة لا يدخلها هوى النفس؛ لأنها تتم بآلات صماء. نقول إن هوى النفس يدخل فى برنامج الآلة نفسها حسب ذلك الذى يضع البرنامج.

ولقد قيل إنهم حددوا موعد يوم القيامة، وكم مرة حدد الدجالون يوم القيامة، فإنى أذكر أن عرافة هندية قد حددت موعد يوم القيامة وصدقها عدد من سكان الهند، وفى اليوم المحدد أخذوا أمتعتهم وأولادهم وصعدوا إلى قمم الجبال علها تنجيهم من يوم القيامة، ومر اليوم ولم يحدث شىء، ولم تكن الجبال لتقيهم من هذا اليوم حين يأتى موعده.

وأذكر مرة أخرى أن عرافة من المكسيك حددت موعد يوم القيامة، ثم بعد ذلك حدث رعب وذعر فى بعض مناطق أمريكا الجنوبية وأمريكا الشمالية، واتجه عدد من الناس إلى المخابئ وقمم الجبال يحتمون بها، وطبعا لم يحدث شىء، والمهم فى هذا كله أن هذه البدعة وهى ادعاء معرفة يوم القيامة سبق أن قام بها البشر وأثبت الله تعالى كذبهم.

وعلى أية حال فهذا كلام البهائيين وغيرهم من أصحاب المذاهب الهدامة، وهو علم لا ينفع، وجهل لا يضر، فماذا سأستفيد لو أننى علمت أن يوم القيامة غدا؟ ومن الذى سينجينى؟ وإذا لم أعلم أن يوم القيامة غدا فإنه سيأتى، لا يمنعه علمى أو جهلى، وسيأتى فجأة من دون أن يعرف أحد منا، ولا يمكن لأحد أن يحدد موعد القيامة، ولا يمكن لأحد أن يكشف شيئاً من الغيبيات الخمس؛ هكذا قال الله فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وهذه قضية إيمانية فى المقام الأول، فلا يمكن لبشر أن يأتى ويقول: إنه كشف ما ستره الله سبحانه وتعالى عن خلقه واختص به نفسه إلى يوم القيامة، ولا يدخل العقل - أى عقل سوى - أن هذا يمكن أن يحدث.

فإذا قال لك أحد إن العلم قد وصل إلى أنه كشف ما فى الأرحام، أو كشف أحد الغيبيات الخمسة بأنه يعرف ما فى الأرحام تقول له إنك كاذب.

والله يعلم من يشاء، ويعطى العلم لمن يريد من عباده، فمثلا هو علم زكريا ما فى رحم امرأته قبل أن يخلق هذا المولود، فقال له: إن المولود ذكر، وأن اسمه يحيى وأنه سيكون نبيا من الصالحين: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وفى سورة الكهف يقول سبحانه وتعالى فى العبد الصالح: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

فمدلول العلم هنا إذا كان قد كشف عن شيء من الغيبيات فإن اللّه هو الذى علمه لمن شاء من عباده الصالحين، ولذلك لا يكون هذا العلم ذاتيا من الرسول أو العبد الصالح بل يكون علما علمه اللّه له.

وكل الأبحاث التى تمت والتى تتم تؤكد أن البشرية لم تصل إلى أى معنى من معانى يعلم ما فى الأرحام، ذلك أن العلم إما أن يكون ذاتيا بمعنى أنه يعلم حسب قواعد ثابتة محددة، وإما أن يكون خاضعا للتجربة ولاحتمالات الخطأ والصواب، وفى هذه الحالة يكون مجرد تجارب، فما الذى يحدث بالنسبة لما وصل إليه العلم؟ أولا يتم أخذ عينة بعد عدة أسابيع من الحمل، وهذا هو أول ما ينفى العلم؛ لأنه لو كان هناك علم حقيقى لعرفوا ذلك بمجرد بدء الحمل، ولكن العلم عاجز حتى الآن عن أن يحدد اليوم والساعة التى بدأ فيها الحمل، وهو لا يستطيع أن يصل إلى ذلك إلا بعد مرور عدة أسابيع على حدوث الحمل، فهل ذلك العاجز عن تحديد موعد حدوث الحمل يعلم ما فى الأرحام؟ إن كل التحاليل والاكتشافات وكل ما يملكه العلم لايستطيع أن يحدد بالدقة موعد حدوث الحمل.

هذه واحدة، وثانياً أنهم بعد الحمل بعدة أسابيع يأخذون عينة ويحللونها ليقولوا هل المولود ذكر أو أنثى، وهناك احتمالان لا ثالث لهما، إما أن يكون المولود ذكرا، وإما أن يكون المولود أنثى، وهذا يجعل التخمين سهلا جدا، فلو أنه هناك مائة نوع من الأجنة وأنت ستحدد أى نوع موجود فى الرحم لقلنا إن ذلك علم؛ لأنه فى هذه الحالة يكون التخمين مستحيلا، والوصول إلى نوع من بين مائة نوع شيء محتاج إلى علم فعلا، ولكننا نرى بعض النساء عندنا عندما ترى امرأة حاملاً تقول لها: سترزقين بولد، وترزق فعلا بولد فهل هذه المرأة التى قالت هذا الكلام تعلم ما فى الأرحام أم أن التخمين هنا سهل، والوصول إلى النتائج حتى الآن هو وصول ظنى وليس يقينا، هم يقولون إنه بنسبة ٩٠٪ ونحن نشك فى هذه النسبة، إلا أنه حتى لو كانت صحيحة نقول: من الذى قال لك إن كلمة « ما» تعنى ذكراً أو أنثى، إن كلمة: «ما» تعنى كل أحداث الحياة من كلمة ﴿ كُن ﴾ التى تم بها الخلق حتى الموت، بل وحتى البعث «ما» تعنى، أهو شقى أو سعيد طويل أو قصير، ما لون عينيه ولون شعره، عمره وأجله، والأحداث التى ستقع عليه، مَنْ سيتزوج ومن سينجب، وأى الأمراض سيصاب بها، وأى الحوادث سينجو منها، وأى الحوادث لا ينجو منها، رزقه وعمله، كل خلية من خلايا جسمه ومتى تبعث فيها الحياة، ومتى تتوقف عنها الحياة، إلى أى البلاد سيذهب وفى أى الأماكن سيعمل، ومن سيصادق ومن سيعادى، ونستطيع أن نمضى إلى ما لا نهاية فى أحداث الحياة التى تقع على البشر ليكون لها مدلول تحت كلمة «ما» التى قالها اللّه سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز، فمن الذى فسر كلمة « ما» بأنها ذكر أو أنثى، وكيف يمكن أن تدعى أنك تعلم ما فى الأرحام مع إنك علمته بعد أن وجد فعلاً؟

فهل هذا علم ما فى الأرحام، لقد وجد الجنين وتم خلقه فى رحم الأم، ومرت عدة أسابيع على بداية خلق الجنين، وبعد أن وجد جاء العلم ليقول ذكرا أو أنثى، فهل هذا علم يكشف ما فى الأرحام فعلاً؟

لو أن هناك علما حقيقيا لعرفت قبل أن يوجد، ولكن مادام قد وجد فقد خرج من عالم الغيب إلى العالم المحسوس والمكشوف، وعندما خرج وكان، علمت نوعه، ولم تستطيع أن تعرف ذلك ذاتيا، ولكن كان لابد من إجراء عدة تحاليل، فكأنك ترى المرض على وجه الإنسان وتحلل دمه لتعرف نوع الميكروب، فهل هذا علم بالغيب، الجنين تخلق وصار فى عالم الواقع، فأصبحت العملية هى إجراء تحاليل كتلك التى تجريها على الجسد البشرى لتعرف نوع المرض، وكما تخضع هذه التحاليل البشرية للخطأ والصواب، فكذلك تخضع التحاليل التى تجرى على الجنين للخطأ والصواب، وكما لا تعرف من التحاليل إلا الحالة التى أمامك، كذلك لا يمكن أن تعرف من التحاليل التى تجرى إلا حالة الحمل التى أمامك، ولا ينطبق هذا التحليل على أية حالة أخرى، بل لابد لإجراء تحليل لكل حالة على حدة وبعد ذلك كله، فالمعرفة ظنية وليست يقينية.

لذلك عندما يقول أى إنسان إنه يعلم ما فى الأرحام، نقول إن العلم لذاته، وإنك متى حللت دل ذلك على جهلك، وأنك تريد أن تصل إلى الحقيقة، فلماذا يرسلك الطبيب إلى معمل التحليل لأنه يجهل مرضك أو على الأقل لأنه ليس لديه علم مؤكد لما تشكو منه، ومن هنا فإن كل الذين يقولون: إن أحد الغيبيات الخمسة قد كشف إنما يحاولون الإضلال ذلك لأنهم يعرفون يقينا أن العلم يعلم ما فى الأرحام قبل أن يوجد، ولا يعلم ما فى الأرحام ساعة أن يوجد، ولا يعلم ما فى الأرحام بعد أن يوجد إلا بعد أن تمر ستة أسابيع أو أكثر من ذلك تكون التجارب والتحاليل لتحديد نوع الجنين فقط وحتى هذا ليس يقينيا.

ولكن التكوين النفسى والتكوين الخلقى ومستقبل المولود والمواصفات الوراثية له، ثم حياته كلها لا يعرف عنها العلم شيئا، فإذا وصل العلم إلى جزء من المليون من معنى كلمة ﴿ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾ ووصل إلى هذا الجزء من المليون بعد بدء خلق الجنين فى الرحم بأسابيع طويلة: هلل المضللون وقالوا لقد انكشف أحد الغيبيات الخمسة.

نأتى بعد ذلك إلى الغيث أو المطر فنجد الشىء نفسه بالخطة نفسها التى تمت بالنسبة لـ ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾ ثم أيضا بالنسبة ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ وبعض الناس قال إن هناك نوعاً من المواد الكيماوية تلقيه الطائرات فوق السحاب فينزل المطر، والبعض الآخر ادعى أن التنبؤات الجوية التى تتم الآن ويقول فيها مثلا إن أمطارا غزيرة ستنزل غدا، ثم ينزل المطر فعلا اعتبروا أن هذا كشف لقول الله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾، والله يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ أى إن الله هو الذى ينزل الغيث، ونلاحظ هنا قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ ولم يقل يعلم وحده موعد نزول الغيث، أى

إن المسألة فى العملية نفسها التى تتم وليس فى موعد نزول الغيث؛ لأن ذلك شىء تافه بالنسبة لعملية نزول الغيث نفسه، فإن الذى يقول: إن المطر سينزل اليوم أو غدا أو بعد غد فإن هذا التنبؤ ما زال ظنيا حتى الآن، ورغم أنها جزئية صغيرة إلا أن العالم يستخدم لها الأقمار الصناعية والمعدات التى يطلقها فى طبقات الجو العليا ومحطات أرضية تستقبل ومعلومات تحلل، ومع ذلك فمازال هذا العلم حتى الآن علما ظنيا، أى إنه يصدق ويكذب حتى فى أكبر دول العالم تقدما، فكل ما يقال عن تطورات الجو أو عن نزول المطر بالذات هى احتمالات فقط قد تحدث أو لا تحدث.

اللّه جعل عملية نزول الغيث من غيبياته سبحانه وتعالى وقدرته، إنه يعرف مسيرة الغيث منذ أن يتصاعد كبخار ماء من البحر، ولا أريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك حتى لا ندخل فى تفصيلات طويلة، فقطعة البخار هذه عندما تصعد إلى السماء بإذن اللّه من أسفل إلى أعلى ثم تتجمع لتصبح سحابة، هذه السحابة إلى أين تذهب؟ وكيف تدفعها الريح؟ وكم سرعتها؟ ثم أين تسقط الأمطار؟ وهل ينزل رذاذا أم سيلا؟

بعض الناس يقول إن مناطق المطر معروفة فى العالم، وهناك مناطق معينة تنزل فيها الأمطار ومناطق لا ترى الأمطار إلا نادرا، نقول لهم إن هذا غير صحيح إرادة اللّه قسمت العالم إلى مناطق صحراوية ومناطق خصبة، ولكن لأن الكون يسير بطلاقة القدرة وليس بالأسباب، تأتى سنوات تصاب فيها هذه المناطق الكثيرة الأمطار بالجفاف ولا توجد فيها قطرة ماء، ويهلك الزرع، ويهلك الحيوان، ويهلك الإنسان، لو أن هذه بطبيعة الخلق وحدها ما حدث هذا، ولكن مع طبيعة الخلق هناك مشيئة الخالق، نأتى إلى الإنسان المدعى والضال، ونقول له إن اللّه قد شاء أن تصاب المناطق التى تنزل فيها الأمطار بغزارة أن تصاب بالجفاف، تعال أنت ومعك السحب وبقدراتك أنك تنزل الغيث، أنزل لنا قليلا من الغيث أو من المطر فى هذه المناطق الجافة وينظر إليك عاجزا، ويقول إنه لا يستطيع، نقول له هذا الماء الذى يشربه بلايين البشر ويسقون منه حيواناتهم وزرعهم وأنفسهم، أنت تعرف عناصر تكوينه من الأكسوجين و الهيدروجين، تعال فاصنع لنا مائة برميل من الماء لهؤلاء الناس العطشى لنسقيهم فيقف عاجزا، نقول له تعال لهذه الترعة التى جفت من عدم هطول الأمطار وضع فيها قليلا من الماء، فلا يستطيع، فأين هو الإنسان من عملية نزول الغيث؟

بل إن هناك مناطق فى العالم تغرق من غزارة الأمطار وصحارى شاسعة لا تجد نقطة ماء، واللّه سبحانه وتعالى جعل ذلك دالا على قدرته، نقول لمن يدعى أنه ينزل الغيث خذ السحابة التى تعطى ماء هنا يكاد يهلك الناس وانطلق بها إلى الصحراوات لتملأها بالحياة فلا يستطيع.

إذن.. ماذا انكشف من معنى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ ما الذى ظهر؟ وعملية تكوين السحب ودفعها إلى الأماكن التى قدر اللّه لها أن تمطر فيها، ثم نزول المطر، كل ذلك يتم

وأنت لا تدرى عنه شيئاً ولا تحس به، بل إن أكثر بلدان العالم فى العلم والتكنولوجيا لا تستطيع إذا أصابها الجفاف أن تأتى بسحابة تمطر أو إذا أصابها مطر غزير أن توقف نزول المطر.

إن اللّه سبحانه وتعالى يتم عملية البخر من هذا السطح الواسع من الماء الذى خلق ومن كل شىء مبتل حتى ذلك الغسيل الذى فوق سطح منزلك، إنه يساهم فى عملية تكوين السحب ونزول الأمطار، كل مساحة مائية، وكل شىء فيه ماء يتم استخدامه بقدرات اللّه فى عملية نزول المطر، ثم يصعد هذا كله إلى طبقات الجو العليا إلى حيث يشاء اللّه، ثم تتكون السحابة كما يشاء اللّه لها أن تتكون ودونما أى تدخل بشرى، وبعد ذلك تمضى إلى حيث هى مأمورة أن تنزل الماء وقدرة اللّه سبحانه وتعالى تتجسد واضحة فى العملية كلها من ساعة حدوث البخر إلى ساعة نزول المطر، وفى سيطرة اللّه على كل خطوة من هذه الخطوات، ولا أحد يستطيع أن يدعى أن هناك مشاركة بشرية من أى نوع بحيث يكون هناك أى أساس للادعاء فلا يوجد أى عامل مشترك حتى يمكن أن يقال إن أحد الغيبيات الخمسة قد انكشف، فإذا كان اللّه سبحانه وتعالى قد أراد أن يكشف أنه خلق كل شىء من ذكر وأنثى حتى السحاب، وأن عملية تلقيح السحاب يمكن أن تتم، فإن هذا بعيد جدا عن معنى ينزل ﴿ ٱلْغَيْثَ ﴾ ذلك أن اللّه بقدراته تكونت هذه السحابة، وبقدرته جاءت إلى هذه المنطقة لتمطر، وبعلمه أراد أن يرى الإنسان جزئية تافهة من عملية المطر، وعلمه أن تتم عملية رش المواد الكيماوية بالطائرات، وهذه تصيب مرة وتخطئ مرات، والذى يريد أن يقول إن أحد الغيبيات قد انكشفت فليأت لنا بسحابة لتمطر حيث نشاء أو يجعلها تمتنع عن المطر حيث نشاء، وفى ذلك يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٣].

يبقى بعد ذلك من الغيبيات الخمس: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾.

وهذه لم يدر حولها جدل حتى الآن فلم يدع أحد أنه يعرف ماذا يحمل له الغد من رزق ولم يدع أحد أنه يعرف أين يموت، بل إن اللّه سبحانه وتعالى يخلف ظنون كل من يحاول ولو كذبا أن يعرف أين نهايته، وما زلت أذكر قصة مليونير لبنانى بنى مقبرة كلفها ما يقرب من ثمانين ألف جنيه ليدفن فيها، فشاء اللّه أن يكون أجله فى سقوط طائرة فى البحر ونزل الغواصون للبحث عن جثث الضحايا فعثروا عليها جميعاً ما عدا جثة المليونير اللبنانى التى لم يعثروا عليها رغم كل الجهود المكثفة، وبقت المقبرة خالية حتى يومنا هذا وكأنها تنطق بالآية الكريمة: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾.

القرآن.. وحقيقة الرقم ١٩

نأتى بعد ذلك إلى الرقم ١٩ الذى يروج له البهائيون وغيرهم من أصحاب المذاهب الهدامة، ويريدون أن يجعلوا منه شيئاً مقدساً، اللّه ذكر فى القرآن الكريم أرقاما كثيرة ليس بينها ترابط، أى إنها لا تقبل القسمة على عدد واحد مثلاً ولا هى مثلاً كلها آحاد ولا كلها أزواج، فقال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧].

وقال جل جلاله: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥١].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝ ﴾ [الحجر].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤].

وقوله جل جلاله: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾

وقوله عز من قائل: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

وهكذا نرى اللّه سبحانه وتعالى قد استخدم فى القرآن الكريم أرقاما كثيرة لا يربط بينها إلا مشيئة اللّه، فحملة العرش هم ثمانية، لأن اللّه أراد لهم أن يكونوا ثمانية، وأبواب جهنم سبعة لأن اللّه أراد لها أن تكون سبعة، وميقات موسى كان أربعين ليلة، لأن اللّه أراد أن يكون ميقاته أربعين ليلة.

وليس هناك معنى لإثارة الجدل فى هذا كله، ذلك أن الجدل ممكن أن يثور حول أى رقم من الأرقام، ولو أننا قلنا ما الحكمة لو أن اللّه اختار عشرة أو اثنى عشر ملكا لحمل العرش، إذن.. لا توجد العلة فى الاختيار لتضع قيودا على مشيئة اللّه فى اختياره وفى هذا حكمة إيمانية كبرى؛ لأنه متى اختار اللّه فلا نقول لماذا؟ ولا نحاول أن نفلسف الأمور، ولكن نقول شاء اللّه وما شاء فعل، وهذا هو المنطق الإيمانى نفسه الذى كان

يجب أن يقابل به العدد ١٩ من أن مشيئة الله أرادت أن يكون الملائكة حول النار تسعة عشر، كما أرادت هذه المشيئة أن يكون حملة العرش ثمانية، وكل ما يقال خلال ذلك كلام من باب المجادلة بدون الوصول إلى شيء، والذى يدلنا على ذلك هو سياق القرآن نفسه، ولنرجع إلى الآية الكريمة فى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١ ﴾ [المدثر].

إذا قرأنا هذه الآيات بإمعان فكأننا نرى ما يحدث اليوم مسطورا فى القرآن الكريم بدقة ووضوح يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [المدثر: ٣١] أى إن الذين سيفتنون بهذا العدد ويحاولون تفسيره بأوجه شتى ويحاولون استخدام الكمبيوتر وغيره لفتنة الناس، ينطبق عليهم قول الله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ومن هنا يصف الله كل من يفتن بهذا العدد، أو يحاول أن يفتن به الناس من الذين كفروا وتأكيدا لما يحدث اليوم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ وليحذر الذين يحاولون الآن أن يضعوا تفسيرا لهذا الرقم من عند أنفسهم، أو باستخدام التمويه، أو باستخدام الحيل بالعقول الإلكترونية، ليحذر هؤلاء جميعا من أنهم إذا حاولوا أن يفسروا لنا ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ هؤلاء ينطبق عليهم قول القرآن الكريم: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

وهكذا نرى من إعجاز القرآن الكريم أنه أنبأنا بما سيحدث قبل وقوعه بوقت طويل، وقال إننى ضربت مثلا بالملائكة حول النار وقلت إنهم تسعة عشر، وهذا العدد جعلته فتنة للذين كفروا فسيأتى الكافرون فيفتنون به، ويحاولون أن يفتنوا الناس به ويقولون إنه يحتوى على أسرار الكون، وأنه يحتوى على موعد يوم القيامة، وأنه يحتوى على عمر الدنيا، وسيحاول هؤلاء الكافرون أن يتخذوا من هذا العدد فتنة ليفتنوا الناس به، بل أكثر من هذا إن الذين فى قلوبهم مرض والكافرين سيحاولون تحليل هذا الرقم ليتقولوا على الله سبحانه وتعالى وليحاولوا أن يفسروا لكم ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ وهذا ما يحدث الآن ولو أن هؤلاء الكافرين و المضلين لم يأتوا ولم يستخدموا هذا الرقم بالذات ﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ فى الفتنة و الإضلال ولم يحاولوا بالكمبيوتر وغيره أن يقولوا لنا: ﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ لقلنا إن الله قد أخبرنا فى القرآن عن كافرين ومضلين سيأتون ليضلونا ويحاولون فتنتنا بالعدد تسعة عشر، ولكنهم لم يأتوا فكونهم أتوا وكونهم استخدموا الكمبيوتر وغيره، لينشروا عمليتهم هذه أكبر دليل يثبت الإيمان ويدلنا على أن الآية الكريمة التى وصفتهم بالذين فى قلوبهم مرض والكافرين قد حددتهم بالذات، وهكذا يثبت الله الإيمان وينشر

الدين بالكافرين ويجعل من هؤلاء الكافرين الذين جاءوا ليضلوا بآيات اللّه وبالقرآن الكريم يجعلهم مثبتين للإيمان ودليلاً على صدق اليقين.

وبذلك نعرف أن كل العبث الذى يقال عن الغيبيات الخمسة، وعن الرقم ١٩ إنما هو نوع من الإضلال والضلال، والعجيب أن الذين يروجون أن الغيبيات الخمسة قد انكشفت: هم أنفسهم الذين يروجون للرقم ١٩ وما يدعونه مما يحمل من المعجزات.

إلى هنا وأحمد اللّه سبحانه وتعالى على أنه أقدرنى على إتمام خواطرى حول الأمثال فى القرآن الكريم.

وبذلك أكون قد تحدثت عن الأمثال التى وردت فى القرآن الكريم مسبوقة بكلمة مثل.

obeikandl.com

الإسلام.. منهاج حياة

عندما نتحدث عن الإسلام، فإننا نتحدث عن منهج الله الذى رسمه سبحانه وتعالى للحياة فى الأرض، وهو المنهج الذى لن يصلح الكون إلا إذا تم تطبيقه، ذلك أنه لا يوجد من هو أعلم من الله وأحكم من الله ليرسم لنا طريق الحياة الآمنة المطمئنة على الأرض.

والله هو الذى خلق الإنسان، وليس أدرى بالشىء من خالقه أو صانعه، فهو الذى يضع له قانون تشغيله وقانون صيانته ليؤدى مهمته على أكمل وجه، ولقد أراد الله سبحانه وتعالى برحمته ليفهمنا ذلك، فجعل ذلك قانونا أرضيا لا تصلح الحياة إلا به فإذا أخذنا التلفزيون مثلاً فإن أول من يضع قانون تشغيله هو الذى اخترعه، وهو يقول لك افعل كذا واضغط الزر رقم كذا ليعطيك الصورة، ورقم كذا ليعطيك الصوت ثم يضع الصانع «كتالوجا» مع الجهاز يدرسه المتخصصون ويرجع إليه الناس إذا فسد الجهاز وأرادوا إصلاحه، فإذا ذهبت لتحضر نجارا أو حدادا ليصلح جهاز التلفزيزن فإنه يفسده، وإذا قلت للناس ذلك فإنهم يسخرون منك.

والعجيب أن هؤلاء الناس الذين يسخرون منك إذا فعلت ذلك بالنسبة لأى اختراع أو آلة فإنهم هم أنفسهم الذين يحاولون مقاومة تطبيق النظرية نفسها على الإنسان، فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق هذا الكون وخلق الإنسان ووضع القوانين التى تمضى بها الحياة كلها ولكن الناس تأتى لتحاول أن تفسد الكون بأن تضع له القوانين التى تروقها تماما كما تحضر الحداد أو النجار ليصلح جهاز التليفزيون وهى بذلك تدعى - بلا حياء - أنها أعلم من الله بخلقه، وأعلم من الله بأسرار كونه فبدلا من أن تأخذ قوانين الله الخالق والصانع تحاول أن تضع هى القوانين فنرى القانون الرومانى والقانون الفرنسى.. إلخ.

ويمضى الزمن و يظهر فساد قوانين البشر، وأنها لم تجلب إلا الشقاء للبشرية، فيأخذون فى تعديلها بحجة معالجة المشكلات التى ظهرت عند التطبيق، وبعد عدة سنوات يتبين أن التعديل لم يصلح شيئا، فيتم التعديل، وهكذا تمضى القوانين البشرية فى حلقة مفرغة، تتزايد معها المشكلات وتتفاقم معها الداءات، ولكن أحدا لا يفكر أبدا فى أن يريح البشرية فيرجع إلى قوانين الله، لأن هذه القوانين البشرية كلها لا تصلح حياة الإنسان فى الكون بل تفسده.

وإذا نظرنا للعالم اليوم نجد أنه يملؤه الشقاء، ولو استمعت إلى أى نشرة أخبار فى

الإذاعات أو فى الصحف، لوجدت أنها تحمل من أخبار الدمار والخراب والقتل والحروب أكثر مما تحمل من أخبار الخير والبركة والحياة الآمنة للناس، والحل هو تطبيق قوانين الله، وهذه ستأتى عن اختيار أو عن اضطرار لأنه لا طريق غيرها، ولكنها ستكون اضطرارا بعد تجارب مريرة، وشقاء بشرياً يمر به العالم.

وقبل أن نبدأ فى الحديث عن حتمية الحل الإسلامى للبشرية كلها، لابد أن نفرق بين قوانين الأرض وقوانين الله، ذلك أن هناك فرقا جوهريا قد لا يتنبه إليه الكثيرون؛ فقوانين الأرض عند التطبيق لا تقتضى أى نوع معين من السلوك، ولكن قوانين الله تقتضى مع التطبيق سلوكاً بالعمل، ومأساة هذا العصر ليست فى أن نصل إلى النص الواضح فى قوانين الله، ولكن القدوة السلوكية هى القليلة بل النادرة، وقوانين الله محتاجة إلى سلوك وإلى قدوة وهذا ما يغيب عنا.

ونفسر ذلك قليلاً، إن الله سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يطبقوا قوانينه، وأن يطبقوها أولاً على أنفسهم، فإذا لم يبدأ الإنسان بنفسه انتفت القدوة الإيمانية التى تجعل الناس يستمعون إليه ويصدقونه، ونحن فى عصر جرب الإنسان فيه كل شىء، وكل نظريات الدنيا التى تبدو برّاقة، ووجد فيها الشقاء والتعاسة، ولذلك أصبح يحن للرجوع إلى الدين ليخلصه من هذا الشقاء، ولكن الرجوع إلى الدين تلزمه القدوة فيمن يقدمون النصيحة، أو كما قلت أن يطبق الإنسان ما يقوله على نفسه أولاً، ولقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أنا لا آمركم أمرا أنا عنه بنجوى»[1].

---

(١) قال السيوطي في الدر المنثور: أخرج أبو نعيم في الحلية عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة، إذ رأيتم الناس أماتوا الصلاة وأضاعوا الأمانة وأكلوا الربا واستحلوا الكذب واستخفوا بالدماء واستعلوا البناء وباعوا الدين بالدنيا وتقطعت الأرحام ويكون الحكم ضعفا والكذب صدقا والحرير لباسا، وظهر الجور وكثرة الطلاق وموت الفجاءة وائتمن الخائن وخون الأمين وصدق الكاذب وكذب الصادق وكثر القذف، وكان المطر قيظا، والولد غيظا، وفاض اللئام فيضا، وغاض الكرام غيضا، وكان الأمراء والوزراء كذبة، والأمناء خونة، والعرفاء ظلمة، والقراء فسقة إذا لبسوا مسوك الضأن، قلوبهم أنتن من الجيف وأمر من الصبر يغشيهم الله تعالى فتنة يتهاركون - يتهاركون: يمشون باختيال وبطء - فيها تهارك اليهود الظلمة، وتظهر الصفراء يعني الدنانير، وتطلب البيضاء وتكثر الخطايا ويقل الأمن، وحليت المصاحف، وصورت المساجد، وطولت المنائر، وخربت القلوب، وشربت الخمور، وعطلت الحدود، وولدت الأمة ربتها، وترى الحفاة العراة قد صاروا ملوكا، وشاركت المرأة زوجها في التجارة، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وحلف بغير الله، وشهد المؤمن من غير أن يستشهد، وسلم للمعرفة، وتفقه لغير دين الله، وطلب الدنيا بعمل الآخرة، واتخذ المغنم دولا والأمانة مغنما والزكاة مغرما، وكان زعيم القوم أرذلهم، وعق الرجل أباه وجفا أمه وضر صديقه وأطاع امرأته، وعلت أصوات الفسقة في المساجد، واتخذ القينات والمعازف، وشربت الخمور في الطرق، واتخذ الظلم فخرا وبيع الحكم، وكثرت الشرط، واتخذ القرآن مزامير =

ومن هنا فإن أهم ما يلزمنا ليس تعليم الدين فقط، ولكن سلوكيات الدين، فهذه هى التى تصنع، وهذه هى التى تبنى، وأنا عندما يأتينى رئيس عمل ولا أراه متميزا عنى إلا بالشقاء فى عمله، والدقة فى حضوره، فإذا طلب منى أى شىء فإننى أقوم به عن طيب خاطر؛ ذلك أننى أحس أنه غير متميز عنى إلا بكثرة مسئولياته، وهو فى هذا يعطينى القدوة السلوكية التى رسمها الإسلام، والإسلام دين الحق، ولقد قال لى أحد المستشرقين الذين اعتنقوا الإسلام: إنه آمن بهذا الدين لأن الرسول كان يكره أن يتميز على أصحابه، ولو أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن رسولاً، وكان يأتى بهذا الدين من عنده لكان له هدف فى ذلك، فكل من يكذب يفعل ذلك لهدف، والكذب فى مُدَّعيى النبوة أنهم يريدون أن يسيطروا أو يحكموا أو يحصلوا على نفع عاجل من الذين يدعونهم إلى الدين الجديد.

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم كان قدوة سلوكية؛ فلم يكن يبغى السيطرة، بل كان يقول دائما أنه بشر رسول، ولقد عرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر، وبدون جهد أو تعب، أن يعطوه من المال ما يريد، فلما رفض عرضوا عليه الملك إن أراد، فلما رفض عرضوا عليه الزعامة والثروة والجاه والسلطان، وكل ما تستطيع الدنيا أن تهبه، كل هذا وهو فى أول الطريق ولكنه رفض هذا كله.

إذن.. فالغاية التى من أجلها يدعى الناس النبوة أو يبتدعون النظريات.. الغاية وهى زينة الدنيا بما فيها، قد رفضها رسول الله من أول الطريق.

وعندما وجد من يصافحه يرتعد من الانفعال لأنه يصافح رسول الله قال له: هون على نفسك فأنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد - أى الخبز الجاف - وهكذا رفض أن يكون متميزا فى علاقته مع أى ممن اتبعوا دين الإسلام [١].

وعندما مات ابنه إبراهيم عليه السلام، حدث خسوف فى الشمس وقال الناس: إن الشمس قد انخفست حزنا على وفاة إبراهيم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «إنَّ الشمسَ والقمرَ آيتان مِن آياتِ اللَّه لا يخسِفانِ لموت أحدٍ» [٢].

وهكذا أرادوا أن يضعوا له مجدا يعطيه السيطرة على القوى الهائلة فى الكون، ولكنه رفض أن يقبل ذلك وكان دائما يباهى ببشريته، وهذه ليست صفات من يدعى النبوة.

وأخيرا فإنه يحدث فى بعض الأحيان أن تكون المُثل عند الإنسان أكبر من حجم

= وجلود السباع خفافا، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وخسفا ومسخا وقذفا وآيات.

(١) روى ابن ماجه [٣٣١٢] عن أبى مسعود رضى الله تعالى عنه قال: أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه فجعل ترعد فرائصه فقال له: هون عليك فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد». وصححه الألبانى.

جزء من حديث رواه البخارى [١٠٥٣] عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما.

الدنيا؛ لأنه لم يذق حلاوة المجد والحياة والسلطان والمال ونعيم الحياة، ولكنه حين تُقبل عليه الدنيا قد تتغير مُثلهُ وقِيَمهُ فكم من إنسان بدأ مكافحا، حتى إذا حقق لنفسه الثروة نسى المُثل التى قامت عليها حياته، وأباح لنفسه ما كان يُحرّمه عليها، ولذلك نسمع عن كثير من الذين قادوا ثورات الإصلاح فى العالم أنهم انحرفوا عن الطريق، وأنه لابد من تصحيح مسار الثورة، وإبعاد المنحرفين عنها.

ولكن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رفض بعد أن انتصر الإسلام، وانتشر فى الجزيرة العربية، وثَبّت أقدامه، رفض أن يحصل على ميزة شخصية، فلا هو بنى لنفسه قصرا، بل ظل يعيش فى بيته، ولا هو أنشأ لنفسه حرسا مصداقا لقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

ولا هو كان بيته ممتلئاً بالولائم وفاخر الطعام؛ بل كان - كما قالت السيدة عائشة رضى اللّه عنها - تمر الأيام، ولا توقد فى بيتنا نار، فكان يعيش على التمر والماء [(١)]، ولا هو حقق لزوجاته ثروة من مال الدنيا، بل منع عنهنَّ الغنائم من دون سائر نساء المسلمين، ولا هو ترك ثروة لذريته، بل قال: لا لنفسى، ولا لذريتى، نحن معشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة [(٢)].

وينهى المستشرق حديثه؛ بأن رجلا هذا خلقه لابد أن يكون صادق الرسالة ورسول اللّه الحق الأمين.

وإذا كانت البشرية تعانى ما تعانى، فإنها لابد أن تعود مضطرة، ومقهورة إلى قوانين اللّه فى الأرض، إذا أرادت إصلاحا وفى ذلك نستطيع أن نضرب الأمثلة التى بدأت تتحقق.

أول هذه الأمثلة هو الطلاق واللّه سبحانه وتعالى أباح الطلاق لأن الحياة لا تستقيم إلا به وجاءت الكنيسة الكاثوليكية تحرّم الطلاق، وتدافع عن ذلك بأنه حفظٌ لكيان الأسرة إلى آخر ما قيل وما يقال، ومضت السنوات وتفاقمت المشكلات، وبدلا من أن يحفظ عدم الطلاق الأسرة هدمها، وانحرف الزوج، وانحرفت الزوجة، وضاع الأولاد،

---

(١) روى البخارى [٢٥٦٧]، ومسلم [٢٨/٢٩٧٢]، والترمذى [٢٤٧١]، وابن ماجه [٤١٤٤]، وأحمد فى المسند [٦/ ٧١] عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها أنها قالت لعروة: إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى أبيات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نارٌ. فقلت: يا خالة، ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه قدكان لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جيران من الأنصار، كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من ألبانهم فيسقينا».

(٢) روى البخارى [٦٧٣٠]، ومسلم [٥١/١٧٥٨]، وأحمد فى المسند [٦/ ١٤٥] عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت: إن أزواج النبى صلى اللّه عليه وسلم حين توفى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أردن أن يبعثن عثمان إلى أبى بكر يسألنه ميراثهن فقالت عائشة: أليس قد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا نورث، ما تركناه صدقة».

واضطرت الكنيسة الكاثوليكية مرغمة أن تبيح الطلاق، لم يحدث ذلك اقتناعا بالدين الإسلامى، ولا إيمانا بقوانين الله، ولكنه حدث لأن الحياة لا تستقيم بدونه.

والمثل الثانى مسألة أن تُرضِع الأم طفلها، حكم من الله سبحانه وتعالى أن تكون الرضاعة مدة عامين، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وجاءت المجتمعات غير الإسلامية، لتقدم نوعا من اللبن للأطفال يُعطَى لهم بعد أسابيع من الولادة، وقالت: إن هذا اللبن يُعطى الطفل من العناصر الغذائية ما لا يعطيه له لبن الأم وصدق الناس هذه النظريات، واندفعوا بلا وعى وراء ألبان الأطفال التى تبيعها الصيدليات وضاع الزمن، وهذا الوهم الكبير يسيطر على العالم إلى أن اكتشفوا أخيرا الأضرار الهائلة التى تحدث للطفل الذى لم يرضع من لبن أمه، ومن المكان نفسه الذى انطلقت منه الصيحة نفسها عن الألبان من غير لبن الأم التى تُعطى للأطفال، انطلقت الصيحة هذه الأيام لتقول: إن الطفل الذى لا يرضع من لبن أمه ينشأ عليل الجسد، عليل النفس، وأن الأم لابد أن تُرضع طفلها إذا كانت تريد أن ينشأ ابنها نشأة طبيعية، وهكذا عادت المجتمعات الغربية التى تُبهر بعض الناس بما يسمونه التطور العلمى، عادت هذه المجتمعات إلى قانون من قوانين الله، وأن الأم لابد أن تُرضِعَ طفلها، عادت إلى قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

هل عادت بالإيمان؟ هل عادت لأنها آمنت بالإسلام؟ لا، لكنها عادت لأن الكون لا يصلح إلا بقوانين الله.

والمثال الثالث هو عقوبة القتل، والله سبحانه وتعالى قد شَرَع هذه العقوبة، جزاءً لقتل النفس البشرية والفساد فى الأرض، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ [المائدة: ٣٣].

كما شرع سبحانه وتعالى عقوبة القتل بالنسبة للقاتل، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وجاءت بعض المجتمعات الأوربية وألغت عقوبة الإعدام، وصفق الناس وهللوا وقالوا: هذه هى المدنية ومن هذه الدول: بريطانيا وإيطاليا ومرت السنوات، وإذا بالجريمة تنتشر فى هذه المجتمعات انتشارا مروعا، حتى ازداد معدلها بنسب كبيرة وإذا بهذه الحكومات نفسها التى قالت بأن ذلك مدنية تطالب مرة أخرى بعودة عقوبة الإعدام كحل ضرورى لمواجهة زيادة الجرائم وبخاصة جرائم القتل والتخريب.

والمثال الرابع فى الربا و نظرة واحدة إلى الاقتصاد العالمى الآن ترينا ماذا فعل الربا

فقد وقعت كل دول العالم فى الديون، الدول الغنية والدول الفقيرة وفى كل يوم يزداد الأغنياء غنى، والفقراء فقرا، اختل الميزان الاقتصادى للعالم كله واجتمع خبراء الاقتصاد فى العالم وقالوا إنه لا حل للمشكلة الاقتصادية إلا أن يصبح سعر الفائدة فى العالم صفرا، ولو أنهم كانوا منصفين لقالوا: إنه لا حل للمشاكل الاقتصادية فى العالم و الربا موجود، ولكن كلمة الحق لم تكن تخرج من أفواههم فقالوا سعر الفائدة لابد أن يساوى صفرا.

وعلى أية حال فلن يعتدل النظام الاقتصادى فى العالم ما دام التعامل يتم بالربا، فإذا انتهى التعامل بالربا انصلح اقتصاد العالم، تلك القضية التى لابد أن نفهمها، إن العالم كله لابد أن يعود إلى القوانين التى شرعها الله للحياة على الأرض، حتى تستقيم الأمور، فإن لم يعد باختيار وإيمان فسيعود مضطرا بعد تجربة مريرة تعانى منها البشرية الويل وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩]

أى إن منهاج الإسلام ومبادئه ستسود العالم كله ولن تستقيم الحياة بدونها.

الله سبحانه وتعالى أعطانا هذا المنهاج هدية من عنده.. وبين لنا الطريق فى رحمات تنزلت علينا وهو يريد بذلك أن يقينا سوء التجربة والخطأ اللذين سنمر بهما.. ثم بعد ذلك نعود إلى منهج الله.. ولكننا رفضنا هذه النعمة وبدأنا نبحث عن المدنية التى هى فى الحقيقة تحاول أن تهاجم الإسلام وتظهره بمظهر الرجعية والوحشية، وفى ذلك يتحدثون عن عقوبة قطع يد السارق وكيف أنها وحشية، وينسى هؤلاء أنه فى كل صباح فى العالم تقطع مئات الأيدى والأرجل فى الحروب الصغيرة التى أصبحت تدور فى كل مكان، وفى حوادث الخطف والنهب والاعتداء على الأعراض التى زادت بنسبة هائلة فى كل أنحاء العالم، إن الأيدى التى قطعت فى لبنان وحدها كل صباح أكثر من الأيدى التى تقطع كقصاص من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يومنا هذا، فأين هى الوحشية ومن هم المتوحشون؟ ومن هم المتمدنون؟

على أن لله سبحانه وتعالى فى كونه آيات كثيرة تظهر إعجاز الله ونحن لا نفهمها، فقوانين الكون وقوى الكون التى تحارب هذا الدين، إنما تظهر الحق فيه، وذلك أن الجمال فى الكون هو أن يوجد الشر بجانب الخير، وأن نرى الحق ينتصر على الباطل، فالله سبحانه وتعالى حين وضع قوانين كونه بحكمة ودقة ليسير الكون إلى غايته، فالله سبحانه وتعالى جعل لكل مجد نصيبا ليكون هناك العمل، فلو أن الطالب الذى يذاكر نجح والطالب الذى لم يذاكر نجح، لاختفى الجمال فى الكون.. لماذا؟ لأنه فى هذه الحالة لن يذاكر أحد، وسيصبح الناس أميين وتنتهى حضارة البشرية التى أرادها الله للإنسان، ولكن الجمال فى الكون هو أن يرسب الذى لا يذاكر، وينجح الذى يذاكر، وأن يتم كشف أسرار الكون للعالم الذى يبحث عنها، ولا يتم لمن لا يبحث وأن يعرف الذى يدرس أكثر من الذى لا يقرأ، تلك أسباب وضعها الله سبحانه وتعالى ليرقى الكون المخلوق لله إلى

الحضارة التى خلقها الله، ولو أعطى الله سبحانه وتعالى الحضارة للإنسان بدون علم لحطم نفسه وانتهى الكون، ولو أعطاه علما بدون حضارة لأحس الإنسان تفاهة قيمة العلم، ولكن الاثنين يكمل بعضهما بعضا.

والإسلام قبل كل شيء هو سلوك، والإنسان المسلم يجب أن يسلك سلوك الإسلام، ولكن القليل هم الذين يفعلون ذلك، ولو أنهم فعلوه لأحسوا عظمة هذا الدين وما يقدمه من سلوك طيب ومنهج كريم.

obeikandl.com